نبض الذكريات

الكتاب: نبض الذكريات.

المؤلف: جيهان عجينة.

الغلاف: محمد علي.

رقم الإيداع: 7830

المراجعة اللغوية: أحمد محمد عبدالستار.

الإخراج الفني: دار ضَمّ للنشر والتوزيع والترجمة

المدير العام: محمود عادل محمود

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز لأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو كان أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

العنوان: مساكن الجمالية –بلوك ٢- الجمالية - القاهرة

البريد الإلكتروني: EddamPuplisher@gmail.com

رواية

نبض الذكريات

جيهان عجينة

ضمة
للنشر والتوزيع

مقدمة

مر شريط الذكريات كأنه قطار سريع يسير بأقصى سرعة، يأبى الوقوف متحديًا الزمن بكل تجلياته وكأنه ينبأ في صمت رهيب بقوته المخيف، ليشير إلى عجزها عن استرجاع ما أخذته الأيام، وجل ما تفعله هو النظر من خلف زجاج يشوبه بعض الضباب، ليكون تأثير الذكريات كحاجز يمنع العقل ويوقفه أحيانا عن الحاضر، بل وعن المستقبل أيضًا.

ترى خلف هذا الزجاج أشباه كل شيء، وأنصاف كل شيء، لا شيء مكتمل على الإطلاق وكأنها أشباح تُلقي بظلالها على هذا القطار اللعين، أو كطائر من العصور القديمة يخيم بمخالبه الحادة على قطار الذكريات، ويحجب الرؤية ليسود ظلام الماضي على المستقبل.

أغمضت عينيها لبرهة من الزمن، لتسترجع قواها أو لتهرب من شبكة عنكبوتية توشك أن تسقطها في شباكها، لتكون فريسة لظلام دام عمرا بأكمله.

و من داخلها ينبع صوتًا ينادي بقوة أنني بجوارك فقد كان يناديها بأسماء لا تدري كنيتها.

استيقظت من غفلتها لتبحث في جنبات المكان عن مصدر ذلك الصوت، فقد كان صوتًا عذبًا كعذوبة نهر الفرات، ليبعث نبض من قلب الذكريات.

* * *

(الفصل الأول)

أمسك آسر يد علياء بقوة وهما يسيران على شاطئ البحر، يتأمل وجهها الملائكى وهو يقص عليها مغامراته العاطفية، فقد كانت علياء بالعقد الثالث، متوسطة القامة، خمرية البشرة، ذات عينين ناعستين، بأهداب طويلة، تنسدل على عينين بنية اللون، ومكتحلة بالكحل الربانى، وثغر صغير يعلوه بسمة مشرقة كشمس النهار الساطعة.

آسر أتعلمين حبيبتى تلك التي رأيتها بالأمس، لقد طار قلبي عندما دخلت مكتبي وهي تسير بخطى واثقة، وجسم ممشوق،

- آه من جمالها الآخاذ!

إنها تشبه كثيرًا تلك الفتاة التي أحببتها بالجامعة وكانت أول محبوبة بالقلب ولكنها تركتني لأجل شخص أخر.

جذبت علياء يدها بقوة، ونظرت إليه نظرة يشوبها حزن وألم، وقالت ألم تكتف بالحديث عن النساء؟!

هذه ملكت قلبك، والأخرى تشبه محبوبتك الأولى، بكل مرة نخرج فيها سويًا أسمع منك هذا الحديث، فماذا أكون لك؟

ألم أكن لك يومًا حبيبة؟!

فأنت لا تنفك تذكر حبك الأول، وكيف كنت تتمنى الزواج منها، وحبك الثاني الذي ملك فؤادك..

فالحب هو الذي يعصمك من المعاصي بالحلال، وليس كما تفعل..

الحب هو أن يهفو قلبك لي ولا تمد عينيك لأحد غيري..

لقد كنت أنصت إليك دائمًا باهتمام وأحاول إذابة جليد الذكريات وجبال الهموم التي علقت بذهنك وقلبك وأتسائل هل أنا زوجتك حقا أم من أكون!

ولماذا أستمع لهذا الهراء؟

و كيف كانت جرأتك بالحديث معي بكل مرة، وكأنني صديقتك المفضلة أو أمك التي لا يجب أن تغضب أو تثور أو تبدي أى إنفعال، سؤال يتردد ويكبر صداه في نفسي، آسر.. فمن أكون بالنسبة إليك؟

جذبها آسر نحوه وهو يربت عليها بحنو ويقول:

- أعلم حبيبتي أن حديثي مثل النصل الحاد، ولكني أشعر أنك أمي، وأختي، وصديقتي، التي تنير طريقي وتستمعين إلى حكاياتي، وتنصتين بعناية لقلبي المريض بحب النساء وتضميني إلى قلبك وكأننى طفلك أو قطعة منك.

ألم تعلم آسر أن كلماتك وحكاياتك سيف يقطع أوردة المحبة؟

فلم أعد أحتمل حديثك فصمتي ليس ضعفًا، ولا حبًا، ولكن حفاظ على شمل العائلة، ورابطة الود، فلا تجعل زهرة شبابي معك شوكًا، ولا تجعلني أعيش قهر المشاعر أكثر من ذلك، ولا أن أبحث عن الحب الحقيقي بأعين الناس، ولا أن ألجأ إلى سلاح الصمت فيسود جفاف المشاعر، ويجف نهر الحب بيننا.

جذبها آسر نحوه بحنو وكأنه يستعطف قلبها ألا تتركه وحيدًا غريقًا بمرضه ونزواته.. وأشاحت بوجهها عنه وهي تحملق بالأرض إنكسارا تارة، وتارة أخرى تختلس النظر إلى ذلك البحر بأمواجه الإنسيابية، وأسراب السمك تقفز بالهواء بحركات بهلوانية تبعث على الفرحة والبهجة، وكأنه عرض يمتزج بأنغام البحر الهادئة التي تمتزج بأمواج الحب الإلهي، لقد كانت رؤية البحر والسير والجلوس على شاطئه هي الراحة الوحيدة لإلقاء همومي، فقد كانت أمواجه أحضان تحتويني من إعصار بداخلي ليلقي لي طوق نجاة من مغامراتك آسر، التي لا تنتهي وكأنه صديقي الحميم الذي ألجأ إليه كلما ضاقت بي الحياة.. فقد كنت أخاطبه بكلمات لا يفهمها سواه.

البحر بأمواجه يفهمني ويحتويني أكثر منك زوجى، فأنت غائب قابع في تجاربك ونزواتك.

وصاحت به كفى آسر، فأنا لست تلك التي تجردت من مشاعر الأنثى لتكون محطة لأنثى أخرى.

ودائمًا تسأل نفس السؤال وتقول هل تغضبين من حكاياتى؟

وأنا دائمًا أنظر إليك نظرة كادت تشق روحك نصفين متسائلة:

- وهل أملك إلا أن أشقى بك؟

ودائمًا أشيح بوجهي إلى البحر، ذلك الصديق الوفي الذي يواسي قلبي بنسمات باردة تداعب روحى، وترسم بسمة على وجهي المشرق لتضيء العالم بأسره ولا تكون أسيرة لغلظة قلب جاحد مثلك، فأرسل ضحكاتي، وأطيل النظر إليه بفرحة غامرة وكأنني أرقص رقصة الوداع على موسيقى أمواجه المتدفقة، لتشارك أسراب السمك بهجتهم بالحياة التي لا يتخللها أنانية البشر.

لماذا تعلو ضحكاتك علياء عندما تختلسين النظر لذلك البحر؟

هل أصابك الجنون حبيبتي أم أصابك مس أو جان؟

حل الصمت بينهما وساد البُعد، فترك آسر يدها وهي تنظر إليه بين الحين والآخر، ترمقه بنظرة ساخرة وتقول:

- ما أغبى الإنسان آسر عندما يبحث عن السعادة في وهم سكن عقله في سلة من قمامة الأفكار، عندما يبحث عنها بعيدًا عن دينه وحلاله. ما أغباك زوجي الغابر.. قد وقعت بمستنقع وتلوث قلبك النقي. فقد كانت حكاياتك رصاص قاتل أطلقتها لتستقر بصدري الحاني في صمت رهيب، فقد أظلمت روحي بين يديك فلم أعد تلك الفتاة القديمة التي كانت تتطلع إلى الأمان والسكينة بين يديك، ولكن ذلك الأمل هو من يجعلني على قيد الحياة أبننا، آسر، ذلك الملاك الصغير المرح الذي يلهو بإستمرار ويبعث الفرحة الحقيقية بقلبي.. ذلك الطفل والنور الذي يضيء حياتي آسر، لقد أصبحت روحي لا تقدر أن تعطي أو تأخذ بين يديك.. فقد بدلتها أنت من نسيج حريري متماسك صلب إلى قطعة بالية متهلهلة لا تصلح حتى أن تداوي روحي، فقد طعنتني بغدرك، فقد كنت أبية، تأبى دموعي السقوط من عيني، ولكنك جعلت الدموع تنساب بين أمواج البحر عند كل مرة نسير فيها على الشاطئ.

كم أحسد ذلك البحر آسر لأنه يحتضن دموع المجروحين والمحبين!

أتوسل إليك حبيبتي بكل كلمات الحب الأبدي والرباط المقدس ألا تتركيني فلست إنسان سيء، ولست أرى ضوء بحياتى سواكي.

آسر لا تظن أنني سوف أعيش وهم الحب الزائف معك بعد أن انكشف الغطاء عن دنائة.. وخسرت أنا بإذابة صهير الحب بقلبك، وأصبحت أنا في مهب الريح تحملني إلى أغوار مغارات الفراغ الأجوف المظلم، حيث تغيب شمس الحنان، ويختفي قمر المحبين، فلم أرى بين ضلوعك السكن، آسر أعلم أنني سوف أواجه المجتمع بجهله ولن يتسنى لي الفرصة بمحاكمة عادلة، بمجتمع قهر مشاعر المرأة، ووضعها محل إتهام، ولن أحظى بمرافعة تتيح لي الإختيار لمستقبل أفضل، ولكن يبقى الأمل راسخًا بقلبي الذي لا يرضى إلا بشموخ الأنثى..

ولقد غربت شمس الحياة وحان الرحيل والعودة إلى حيث أتينا، إلى بيتنا الذي يخيم عليه خوف الفراق.

سبقها آسر إلى عربته وهو هائم بحديث زوجته متوجسا الفراق، وأن تتفوه علياء بأسراره عندما كان يبيح لها.

فقد أعطاها صندوق أسراره كلها. فهى بئر لا يستطيع أحد أن ينهل منه بسهولة، وتبعته علياء وهي تداعب ابنها وتسابقه بالعدو وكأنها طفلة صغيرة إلى السيارة.

خيم الصمت بينهما إلى أن وصلوا جميعًا إلى البيت، وبات كل منهم يتفكر بحديث الآخر، ويرتشف ذكريات الكلمات ومعانيها.

* * *

(الفصل الثاني)

وفي صباح اليوم التالي صاحت أشعة الشمس الملتهبة لتوقظ النائم من غفلته على حديث الطيور، على أغصان الشجر.

نهضت علياء لتعد مائدة الإفطار، ولتستعد ليوم جديد وعمل روتيني وحياة رتيبة مملة بحديث زوجها وأنانيته.

رشف آسر قهوته، وهو يستنشق ذلك الدخان المتصاعد من الفنجان ويأخذ نفسًا عميقًا وعيناه تتصفح جريدة الصباح..

وعلياء تستعد للنزول لعملها بمدرسة قريبة من المنزل..

وإذا بها وهي تضع حجابها دق جرس الباب بدقات متسارعة، فهرعت مسرعة لترى من ذلك الذي يطرق الباب هكذا، فإذا بها فتاة طويلة القامة، تصرخ وتنادي على زوجها بإسمه..

– من تكونى؟

أجابت أين آسر؟

فدفعت تلك الفتاة علياء بقوة كادت أن توقعها على الأرض صريحة، وهبت منطلقة داخل المنزل تبحث عن آسر إلى أن وجدته يرشف القهوة.. فأطاحتها من يده لتطير حبات القهوة على يده وهي ساخنة، ويطيح فنجان القهوة طائرًا ليقع على الأرض ليصبح فتات تملئ المكان.

أصيب آسر بالذهول وشلته المفاجئة عندما رأى عشيقته أمامه، تُلقي الإتهامات، وتسرد بصوتها العالي حكايتها معه، وكيف غدر بها بكلمات الحب المزيفة..

غابت أضواء الأمل عندما سقطت علياء مغشيا عليها، وطفلها يصرخ من صيحات تلك الفتاة وهي تنادي آسر بزوجي..

دفع آسر تلك الفتاة إلى الخارج ووعدها أن يأتى إليها ليلًا، وهرول إلى زوجته علياء يفيقها من الغيبوبة بعطر نفاذ، فتحت عينيها وكل شيء حولها يدور، وكأنها علقت بعقارب الساعة تدور معها بدائرة لا ينتهي بها الزمن.

أغمضت عينيها لتستعيد توازنها، وتبعد يد آسر عنها بقوة وتصرخ بوجهه أن يتركها لحالها ويغادر المكان ودموعها تنهمر لتغرق وجهها ألمًا وحسرة.

حاول أن يلمس يدها لتستند عليه وتنهض إلا أنها نهرته وجذبت يدها، ومالت بجسدها لتهب واقفة على قدميها، وانهالت على وجهه بصفعة قوية واحتد النقاش بينهما، وتعالت الأصوات، وتطاول بالأيدي لتنزل صفعاته المتتالية على وجهها الطفولي، وجسدها دون رحمة ووعي.

بهذه اللحظة قررت علياء أن يكون الفراق طريقها، بكى آسر بكاء طفل يتوسل إليها راكعًا ألا تتركه، ولكن انكشف الغطاء عن دموع التماسيح، وهو يذرفها تحت قدميها، عندما فاض قلبها بغضًا من هذا الزوج الذي لا يشبع أبدًا من أكاذبيه التي لا تنتهي.

عزمت علياء على الفراق وشرعت تحزم حقائب السفر، حاول آسر أن يمنعها بالقوة تارة، وباللين تارة أخرى، فكبرياء الرجل لا يسمح له

برفض الأنثى.. وانقلبت الحياة إلى جحيم وتطايرت الثقة بينهم بالهواء وكأنها هباء منثورا.

فآسر يرى زوجته وميض الضوء الطاهر بداخله، فهى الحقيقة، والضمير، اللذان يردعه عن فعل المنكرات. ولكن لفرط الحب والإمتلاك ينفرط عقد اللؤلؤ متدحرجة على الأرض ليطأ عليها كل خسيس بقدميه، وتضيع الأخلاق، ويسود الظلام، فتضيع العائلة بين الكبر والعناد، فيظهر الكفر بالنعم ألا وهي نعمة السكن بين الأزواج.

أصرت علياء على الفراق، ولكنها تلقت صفعة قوية على وجهها الملائكي.. وعندها علمت كم أن كيد الرجال حقد وكبر، شعرت علياء بما شعر به يوسف عندما رُمي بالبئر وحيد، ذاقت مرارة صبر يعقوب عندما داعبه الأمل سنين.

كم كانت بالغربة وحيدة!

في سجن أطبق على أنفاسها قهرًا عليها، أغلق آسر باب الغرفة وقال:

- لا أحد يقرر، ولن تكوني سيدة قرارك أبدًا، أنا الشرقي، هنا لا يعلو صوت المرأة فذمام الأمر بيدي.

علمت علياء أنها وقعت فريسة صياد ماهر، ساوم على عمرها بعد ضعف وهوان، فدت نفسها بمقابل أن تعود إلى أرض الوطن لتحتمي من ظلم الأيام، ولكنها لم تكن تعلم أن الغربة كانت أهون من مجتمع حفر لها قبرًا..

أغلق باب الغرفة، وبقيت علياء حبيسة الغرفة وحيدة بين قهر وظلم، شاحبة الوجه فقد فقدت شعاع الأمل.

ناجت علياء ربها بكلمات بجنح الليل ودموعها تسبقها وكأنها نيران تشق قلبها وروحها قالت:

- ما ذنبي أني خلقت أنثى ألتمس حنوا ودفئا؟

ما ذنبي أني كنت الضلع الأعوج؟

ما ذنبي ربي أني خلقت أنثى وأن الكلمة هي شرف الرجل؟

ما ذنبي بخيانة عهد!

قد كنت طائر ربي حبس بسجن الدنيا، هلا تعطيني حرية روح، وخلاص من ذاك الألم.

ونامت ودموع الحسرة تقتلها، تناجي ربًا وتستدعي قلبًا، تنادي لذاك الصديق الحميم من أعماق القلب، وكانت فرحة آسر تتنامى كلما رآها تذبل، وكأنه أنتصر بساحة معركة الدنيا، ألا يُهزم رجل من إمرأة تذكر.. ولكن رب الكون أرسل جندًا تأذرها وتكون عونا، وإذا بالبحر يهب من سبات الليل ويرسل نسمات تجوب الدنيا بحثاً عنها، تجدها وقد باتت دموع اليأس بخديها، تشعر ببرودة ونسمات تجوب الغرفة وتمسح دمعًا، شعرت بنبض القلب وتدفقت الحياة بجسدها الضعيف، وإرتسمت بسمة على الوجه وقالت:

صديقى كيف حالك؟ كنت أناديك في ظلمة ليل قال:

- سمعتك من أعماق الصمت، وبعثني الله لك لتستعيدي قوتك وروحك، فلا تخافي قد كان الله لك عوناً..

استجمعت علياء قواها، وواجهت مصيرًا مجهولًا نادت آسر:

- هلا تحدثنا قليلًا؟؟

قال بكل العزم أنتِ لي مهما بلغ الأمر.. قالت كم من المال تطلب؟

قال بلا توان نصف ما تملكين، ظن آسر أنها سوف تتراجع بقرارها ولكن قالت:

خذ ما شئت فاليوم تفرح، وإن غدا لقريب بأمر الله.. فرح آسر أن الصفقة نجحت، ولم يعلم أن الرابح كانت هي.. فقد نجت من براثن الخيانة، وكانت بداية رحلة لمجتمع لا يرى إلا أن الأنثى عار من غير الزوج..

* * *

(الفصل الثالث)

"بداية الرحلة"

حزمت علياء حقائبها وشتات نفسها تودع حياة لترحل إلى عالم آخر، ولكن الطريق مليء بالأشواك، وليس محفوفًا بالورود.. كانت تعلم ذلك، جاء آسر بورقة الموت لتوقع بروحها على تنازل عن نصف ما تملك، وحقوقها التي شرعها الله لها، لقد أمسك آسر علياء ضرارًا، وتعدى، كما قال الله تعالى.. فقد كان جواز سفرها بحوزته وكان كفيلها هناك.. وبيده أمرها كله إن شاء أطلق سراحها، وإن شاء أحكم قبضته عليها.

وقعت علياء عقد إطلاق سراحها ولم تكن تعلم أنها بداية التنازلات التي جعلتها مطمع للكثير، وأن هذه التنازلات هي التي جرأت الزوج مرات ومرات عدة لإبتزازها بكل الطرق.

طلبت تاكسي وأخذت حقائبها وأبنها الصغير لتودع عالم صغير مليء بخداع الأفاعى، تركت وظيفتها هناك.. خسرت أموالًا، ذهبت للمجهول بقدميها، وإستقلت أول طائرة لوطنها، تنظر من خلف زجاج الطائرة على المدن..

كم أصغرك!!

وكم أحقر ما تحتويه بداخلك!!

ديدان تأكل بعضها بعض، وبغضون ثلاث ساعات بالطائرة وطأت قدميها على أرض الوطن، تدحرجت دمعة اشتياق على خدها، أحست أن الأرض والهواء تحتضن روحها بشدة، كان بإنتظارها أمها والسائق.. استقلت العربة وفى الطريق تسأل:

علياء: أمي أين أخي وإخوتي؟

قالت: لا يريدون رؤيتك.. فالكل غاضب وثائر عليك..

ذهبت علياء إلى شقتها لتحضر متعلقاتها ولكن طعنة الغدر سبقتها.. وجدت علياء البوابة مغلقة بجنزير حديدي بأقفال عدة..

هاتفت والد آسر وأمه.. أريد متعلقاتى.. ولكن الجواب قد تنازلت ولا يوجد لكي شيء هنا، كانت ترجو فيهم رحمه، قول الحق وردع الباطل، ذهبت علياء مع أمها إلى البيت وسط حزن وحنق وضيق.. ولكن إلى أين أذهب وابنى وأين المفر؟؟

وماذا سوف يفعلون معي عندما يعلمون أننى تنازلت، ليس فقط عن حقوقي، ولكن أيضًا عن نصف ما أملك.. لابد أنهم يريدون قتلي فأنا في نظرهم آثمة لا أستحق العيش.

وأصبحت علياء بدوامة من التفكير تكاد تودي بها أو تدفعها إلى حافة الجنون.. لا أحد سوف يصدقها والكل سيهزأ مني ففي عرف الريف الرجل يفعل كما يحلو له ولا يجوز للمرأة أن تتكلم لا أحد سيفهم كيد الأفعى عندنا تلتف حول العنق بإحكام.

ذهبت علياء تجر أذيال الخيبة والندم.. ماذا ستقول للعائلة، وبماذا تحكي؟ وهل سيقبلون بي فردًا قد فرط في أرضه؟

مرت لحظات كادت تكون دهرا.. ما مصيري ربي، أنجدني من ذاك الألم..

لا أحد سيفهم أبدًا والكل سيهزأ، ويتبرأ مني..

لا أحد سيفهم كيد الأفعى عندما تلتف حول العنق بإحكام لتودي روحًا.

كانت ليلة يسودها ظلام دامس، وكأن الليل أصبح عدوا لدُود، يلقي بأشجانه المتثاقلة على كاهلها.

كان بإنتظارها الأخ الأكبر وخالها الأكبر.. وكانت تدور بأعينهم كم من التساؤلات.. لماذا وكيف؟

كانت علياء على استعداد لمواجهة الموقف بكل الحزم فقد اتخذت قرارها.. فحرية النفس لا تباع ولا تشترى، كانت دائما تردد قد جعل الله لي مخرج.. قد قال :" ولا جناح فيم إفتدت به".

لقد فدت نفسها من حياة كادت تودى بروحها.. وكانت الصفعة التالية من الخال ذو العصبية، فالأرض عرض وشرف لا يجوز التفريط فيها.. تقبلت علياء الصفعة بثبات وقالت: إن كنتم تريدون قتلي فموتي على يديكم أرحم.. واحتضنتها الأم بقوة، ودفعتها إلى الغرفة بقوة، وأغلقت الباب عليها لتحول بينها وبين الخال والأخ..

إحتضنت علياء إبنها بقوة وكأنه الحصن الوحيد الذي تبقى لها، وإرتمت على سريرها وقد خارت قواها من التعب فلم تعد تقدر أن تحملها قدميها.. توقف عقلها عن التفكير وكأن قطار الزمن رجع بشريط الذكريات من جديد.

تذكرت عندما كانت بهذا البيت قبل زواجها سعيدة، وكانت تحوذ الدنيا بأسرها وتكتس الأفعال بالأخلاق والحياء.

تستيقظ باكرًا على أضواء الفجر مفعمة بالحياة..

وبالمساء تتجول بالبستان وسط النباتات..

تلقي البذور لتحتضنها الأرض بقوة، ترويها بالحب والحياة، وتراقبها حتى تشق الأرض جاهدة لترى نور الشمس، تغرد مع الطيور وتستمع إلى أنغام الموسيقى على ضوء القمر..

تحيا حياة هادئة مع الطبيعة مع ضحكات العائلة وهي مجتمعة على العشاء وكل فرد يروي قصة يومه إلى أن جاء آسر وزوجة أخيها فحولوا هذا البيت السعيد إلى أرض خربة وساد قحط النفوس. فقد

كانت عفاف لا تطيقها، فنار الغيرة تأكلها قلبها، وانتهزت الفرصة لفرض السيطرة عليها.

نامت ليلتها بين الذكريات والحاضر المظلم.. ترى وكأنها نائمة بزورق نجاة بعرض المحيط تتقاذفها الأمواج إلى أن رست على قطعة أرض بشلال ضخم تتدفق مياهه بقوة من أعلى إلى أسفل تتدفق مياهه بمجرى كبير يمنع وصولها إلى الطريق.

أسرعت تلقي نظرة على المحيط، فإذا به تراجع وانخفضت مياهه إلى أعماق سحيقة وارتفعت اليابسة، وانطلق سور ضخم حولها، انتظرت فترة إلى أن هدأ شلال الماء واستطاعت أن تقفز إلى الطريق وكان مستقيمًا، وبنهايته منزل صغير وعلى جانبيه حقول القمح الذهبية.

نهضت علياء بالصباح والضوء الخافت يتخلل ببطئ بداخلها، قررت علياء أن تلتزم الصمت وتواجه بثبات.. فالصمت تاج العارفين وبه تدرأ المصائب وفيه ستر للمعاصى فلو جاهرت بما فعله زوجها أصبحت بنفس المنزلة وتركها الله لنفسها لتهلكها بل وتقوم عليها الحجه.

علمت أن حياتها بمثابة هذا الذورق الصغير وأن صديقها الحميم وجند الله كان دائمًا حليف لها بل أيضا طوق نجاة.

* * *

(الفصل الرابع)

"الصراع"

وبدأ الصراع بمنزل أبيها فقد كانت هناك زوجة الأخ عفاف المتسلطة لا ترضى أبدًا أن يشاركها أحدًا هذا المنزل ففيها من الجبروت ما لم تتوقعه..

وأول شيء فعلته هو أن تخير زوجها بينها وبين أخته وهي من دمه.. كان الخيار أمامه صعب ولكن حبه لزوجته وضعفه أمامها جعله يكيل لأخته وإبنها وكل من يحاول الدفاع عنها.

ولم تكتفي الأفعى ببخ سمومها، بل تجاوزت إلى أن تتدخل في حياة الصغير وتحاول جاهدة على أن يترك دراسته بل كانت تعامله كخادم لأولادها.

وترمى له بقايا طعام أولادها، ووقفت علياء وقفة حادة لعفاف واتخذت قرارها أن تنتقل إلى منزلها الخاص..

كان عبارة عن غرفتين غير مكتملتين، يسكنه الأشباح الهائمة ولا يوجد بهم غير أساس قديم مهلهل، قامت علياء ببعض التجديد ليسد أقل بعض الشيء للعيش به، وأقامت به هي وأبنها الصغير.. وحيدة مرة ثانية وسط الأهل والجيران، فقد كانت محط أنظار الجيران والأهل فبعد العز والمال آل الحال إلى الفقر والهوان..

كان قرارًا وفرارًا بنفس الوقت..

فرار من الدنيا التي جمعت جيوشها لتعلن الحرب عليها، فرار من عنفوان شياطين الإنس التي يقف الشيطان لها إجلالا وتعظيمًا.

أغلقت علياء باب بيتها الصغير، تضمها أجنحة الليل وتنسدل ستائر الماضي لتبدأ حياة جديدة.

كانت أول ليلة بين صلاة وبكاء وصرخة تدوي المكان، انكفت تقبل ابنها الصغير، وهو يراقب الأحداث بصمت رهيب وتدور في خلده أسئلة وكأنها ألغاز لا يستطيع عقله الصغير بفك طلاسمها.

ولكن مع الايام سوف يدرك أن أمه كانت حصنه من الدنيا الجامحه، تناولا طعام العشاء في صمت، وبين ذراعيها ضمت الصغير إلى قلبها وهي تسمع نبضات قلبه تعلو وتنخفض وكأنها تشاركها تقلبات الحياة التي يعيشها.

قد كانت ليلتها الأولى وسط السكون، فقد كان منزلها الصغير محاط بحدائق، وحقول غناء، ومحيط السماء، كأنه قبة من بعيد زينت بالشهب والنيازك، كأنها ألعاب نارية تلون صفحة السماء بنجومها.

نامت ليلتها وسط احتفال مهيب بحريتها التي طالما انتظرتها منذ سنين، كانت كدولة محتلة نالت ميثاق شرف الحرية، فالأرض بمن فيها يبعث إليها بباقات الحب التي لم تراها بأعين الناس.

كم كانت أفعالهم بائسة مثل ووجههم!

كم ماتت بقلوبهم نعمة الإحساس!

كم كانت الطبيعة أعظم أم وأحن أخت وأوفى صديقة سجدت شكرا لله على نعمة الجمال الذي سكن روحها على جنده الذي جنده لها، على احتفال السماء بها..

كان موكب مهيب لإستقبالها لتكون فردًا جديدًا وسط الطبيعة الخلابة، فقد كانت نسمات الهواء الباردة تداعب وجه علياء البائس بلطف وكأن صديقها الحميم، هو من يرسلها ليبعث بقلبها نبضًا جديدًا لحياة جديدة، قد كان إحتفال السماء بها كغيث يروى الظمأن حياة.

نامت بابتسامة الرضا تسكن بين ضلوعها، أنها أبدا لن تكون وحيدة.

استيقظت بالصباح على دقات الباب لتجد مجموعة من الناس يتخللهم آسر.. وصيحاتهم تكاد تمزق قلبها وتشق سمعها، كان يريد نصف الأرض.

وإثر هذا الصراخ هرول خالها مسرعًا، الذي كان يروى الأرض المجاورة لها، ونشبت المعركة.

* * *

(الفصل الخامس)

"معركة شرف وكرامة"

دارت معركة الكرامة بين الخال وآسر وأهله.. لا تدري كم استمرت من الوقت فكل مايحدث حولها مثل نار ولدت من أصغر الشرر وهي التي افتعلت تلك الشرارة عندما وقعت على ورقة الموت.. تلوم نفسها وتوقف الزمن مرة أخرى وسط جبال من الهموم. توقف صوت عراكهم فجأة على صوت جريح منهم دمه يسيل من يديه... وكأن قطرات الدماء هذه جاءت ليتوقف نزيف الوقت. سارعوا به إلى المستشفى.

الدكتور: ما الأمر؟

آسر: جريح يا دكتور

الدكتور: لابد من إبلاغ الشرطة

آسر: نعم لابد من ذلك وأرجوك أن تفعل

اطلع الدكتور على الجرح ووجده جرحا قطعيا باليد وتمت خياطته..

وجاءت الشرطة لاستطلاع الأمر وانتهز آسر الفرصة وبدلا من اتهام الخال تم اتهام علي.. فهو الأخ الوحيد ولابد أنهم سيرتجفون ويرضخون بتسليم الأمر.. بل سوف يتنازلون عن كل ما يخصهم ويسلبهم آسر أموالا وأموالا

جاءت الشرطة على إثر هذا البلاغ للأخ علي في محل عمله وأمره الضابط بالاستجابة لطلبه... ولكن لسيرة الأخ الطيبة جعله الضابط يستقل سيارته واللحاق بهم في قسم الشرطة. ولحقت به علياء وعفاف وكانت أول مرة بحياتها تدخل قسما للشرطة ولكن هذه المرة دخلته هي وأخيها على يد آسر وأهله زورا وبهتانا

الضابط: ما اسمك؟

الأخ: علي

الضابط: كم عمرك؟

الأخ: ٤٠ عاما

الضابط: ما قولك في الاتهام الذي نسب إليك؟

الأخ: باطل

الضابط: أين كنت وقت حدوث الواقعة؟

الأخ: في عملي

الضابط: هل لديك شهود على أقوالك؟

الأخ: نعم

الضابط: لماذا وجه آسر التهمة إليك؟

الأخ: لخلافات بينه وبين أختي علياء

الضابط: وما هي تلك الخلافات؟

الأخ: أجبرها على التوقيع على نصف ما تملك.

أمر الضابط أن يبيت الأخ بالحجز ولكن للمال حديث آخر. سحبت الأخت مبلغا من المال ووضعته بجيب الضابط الذي تراجع على الفور عن قراره وأمر أن يبيت الأخ بغرفة الضابط لحين عرضه على النيابة.

أرخى الليل عباءته السوداء وعلياء وحيدة بجنح الليل وسط الكلاب الضالة باتت ليلتها بالسيارة ودموع القلب تعتصر روحها. كادت الحيرة تقتلها وتشل حركتها.. فقد وقعت فريسة الذئاب البشرية فقد كانت المسئول الأول عن كل نبضة ألم حدثت لأخيها.

ظنت أن البشر سواء.. ولكن طبائع البشر كالأشجار بالبيئات المختلفة. فالصحراء لا تنجب إلا أشواك والمالح منها لا ينجب أما الصالحين من تربة خصبة، وهم نادرون.

حاول النوم أن يجد لجفونها سبيلا ولكن دون جدوى... ظلام دامس خلف زجاج العربة.. وضباب يسود الحاضر. ناطحات سحاب من أسراب طيور الليل القاتلة تلتف حولها بإحكام وكل طير يدق بمنقاره الحاد على زجاج الذكريات ليكسر هذا الحاجز اللعين.

تضع يدها بانحناءة على رأسها تارة وعلى أذنيها تارة أخرى... وصوت طيور الليل القاتلة حولها كأجراس تعلو صيحاتها كأنها صدى لكل آلام العالم التي طوقت رقبتها بإحكام.

ران عليها صمت عميق وسط سكون الليل واختفت نجوم السماء وغاب القمر وتبدل شعاع الفجر إلى فوهة بركان كادت تفتح نيرانها عليها... كانت تتمعن الكلاب الضالة خلف زجاج الذكريات. فانزلقت حبات اللولؤ من عينيها هل سأكون مثل هؤلاء بلا مأوى أو سكن أو أهل؟؟؟ كل منهم يعوي عواء الوحدة في جوف الليل... كل الذنب أنها قالت لا.. اختارت.. هل في ذلك ذنب نادت ربها بكلمات محب، أجبني، قد ناداك قلبي، وأنت أقرب مني، فهل أنت مني، لتبعد الأذى عني، وتكون في الأسى ظلي وسندي، فيا محب أجبني!!!

باتت ليلتها بين الواقع والخيال إلى أن رأت على يستقل عربة الشرطة للذهاب إلى النيابة. هناك دعت ربها، أيا من وهبت لين القلب، وبالضلوع انطوى دبيب حياة لذاك الأخ.. حبيب رفيق بذاك الدرب، هب لي قسوة بقلب عاش ذليل بلين الطبع..

لم تكن تعلم أن الله استجاب لها... وبدأت القسوة تتسلل إلى قلبها شيئا فشيئا.. واستعملت كل نفوذها ومالها لإنقاذ أخيها من براثن الغدر. هاتفت آسر وأخبرته بأنها سوف تعطيه وتسلمه ما يريد بشرط التنازل عن كل ما يسيء لأخيها أو أهلها.. فوافق على الفور وتم التصالح. وكانت كحاجز وسد منيع وطلبت منهم عدم التدخل. وهرول مسرعا إليها وقالت له هذه أرضي خذ منها ما شئت. وتركت بين يديه عمرها ليقتطع من روحها ما يشاء.

أخذ آسر ما يريد وسط ذهول وحسرة من الأهل والجيران والكل، يردد كم هي مجنونة؟؟؟ ولكنهم لم يروا ما تراه عيناها وأن الدائرة لابد أن تدور.. وأن هناك أموات يستحقوا الحياة وأن هناك أحياء يستحقون الموت ولكنها الحياة...

توغلت بقع الظلام داخل روحها وتشعبت ندوب اليأس بداخلها تواجه كل الدنيا وحيدة، وتملك الشر منها شيئا فشيئا، وتصدعت أركان الثقة وجدرانها التي طالما استمرت ببنائها لسنوات عمرها.. تواجه تقاتل بائسة حزينة.. ولكنها قررت مواجهة الشر بالخير مهما خارت قواها حتى لو تطلب الأمر مواجهة إبليس نفسه على عرشه...

وتوالت الأيام بأشجانها وعواصفها التي لا تنفك تنتهي أبدا وفجأة استيقظت على أفراح وزينة تملأ البلدة كلها وإذا بها تجد أن زوجها قرر الزواج بأخرى... سيدة مطلقة سوداء جاحظة العينين وكأنها قطعة من جهنم. سمعت علياء دوي الزغاريد وصيحات الأغاني ورقصات الأفاعي. كل هذا من مالها وأحلامها.

انزلقت دموعها على خديها وعلمت أن كيد الرجال مشنقة للنساء.. تزوج على فراشها وبنفس بدلة العرس التي تزوجها بها بل وبنفس اليوم الذي تزوجت به..

كيف سخرت الأقدار منها وكيف لقلبها تحمل هذه الكراهية ممن ذاقوا خيرها. كل شيء حولها يقودها إلى الانتحار.. إلى الجنون.. إلى الهاوية إلى الارتماء بأحضان الشيطان وكأنه سمع صوت قلبها لتتحداه بملكه فقرر أن يبدأ هو الحرب... وكأنه ينظم كل أسلحته لاستدراجها إلى السجود والانحناء له... وأخذت تبكي حالها وترثي حالها: بكى القلب يوم مات الأمل فينا وحديث النفس أصبح كالأنين، وصيحات الصمت بالقلب السجي، تنادي ربي إني بلا شط أو معين، وذكريات الأسى شاهد ودليل أني بالحزن قد وقعت أسيرا.

لم تكن حاجتها إلى أسلحة البشر أبدا ولكنها كانت تتمنى لو كانت تحوز سلاح اليقين بالله. نعم هي تعلم أن جيشها الذي لابد أن تعده وتنظمه بيديها هي وبداخلها وبحلفائها وجنود ربها التي طالما كانوا سندا لها... كان الشيطان قد بدأ بالفعل من محاربتها واستخدم أسلحته فقد ملك حب الشهوة للزوج وحب المال الذي حاربها بها وزوجة أخيها تملكتها حب السلطة والمال والكبر والخديعة الذي ملأ قلبها فحاربتها بها.. والعاشقة الشمطاء ذات الوجه الأحمر واللسان المعسول والجسد الممشوق التي جذبت آسر وتملكت قلب زوجها فقد كانت زوجة أخيه.

فأي حرب هذه التي جمعت كل أسلحتها لتحارب فردا أعزل كل ما يملكه قلبه النقي. لقد استولى الشيطان عليهم جميعا وأصبحوا أدواته التي يحاربها بها...

قد كان زفافه الثاني وسط الرقصات والزينة والزغاريد، وكأنه زواجه الأول من تلك التي يراها العالم بأسره أقبح نساء العالم ولكن كيف له أن يذبح قلب علياء... ولكن النعمة التي نالتها علياء من تلك الثانية

هو شرطها أن ترى ورقة طلاق الأولى. فقد سخر الله زواجه بالثانية لتحصل هي على ورقة الحرية وتتخلص من رق العبودية...

نامت علياء ليلتها ودوي الأغاني يعصف بروحها وتتساقط أوراق شبابها كأنه خريف تهب عواصفه لاقتلاع بقية سنين العمر.

ضمت ابنها بين جناحيها لتمتزج نبضات قلبه بقلبها تواسيه على كل ألم ذاقه قلبه الصغير وسط دموع الدقائق والثواني... ولكن لله جنود لا يعلمها إلا هو يرسلها لنا رحمة حتى لا نضل الطريق العاصف ولا تضيع الأمانة فينا. فكانت تلك اللحظات بين اليقظة والنوم هي جند من جنود الله ليبعث الرحمات بقلب المحن.

سكنت أنفاس علياء وسط مجموعة من البشر لكنهم ليسوا كذلك.

كان يجلس عند رأسها شخص يتلوا آيات من القرآن وآخرون يحثونها على النهوض وآخرين يعلموها كيفية الوضوء... وهي وسط الدهشة والذهول تتساءل من أنتم؟؟

كانت كأنها بين اليقظة والنوم في عالم آخر ليس بعالمها المقيت وكأن هؤلاء يهيؤنها للمهمة الشاقة...

كل منهم يمدها بسلاحه ضد حرب الشيطان التي أعلنها عليها...

كانت آيات الله الدرع الواقى التي يجب أن تحتمي خلفه لصد

همزات الشيطان ونفثه... كان الوضوء نورا بين يديها لتلقي لهب الضوء بوجه الظلام... والكل يبعث الهمة والحياة بقلبها الصغير لمواجهة جيش الظلام...

استيقظت علياء بالصباح الباكر على أشعة الشمس الذهبية تشق الشفق لتلون صفحة السماء بمزيج من ألوان الحياة تموج بعضها ببعض... أطلقت ابتسامة صغيرة على شفتيها وكأنها تلقي تحية الصباح إلى نور الحياة... إلى الهواء.. إلى قطرات الندى... استعدت لمواجهة الحياة بقوة... وإذا بجرس الباب يدق إنها إحدى الجارات. تلك السيدة العجوز التي دائما تجلس أمام منزلها المقابل لها... لم تتجاوز الستين.. خمرية البشرة... قليلة الجسم.. وقد أحضرت طعام الإفطار ليتشارك الجيران الزاد كما يتقاسمون الهواء.. أصرت تلك الجارة أن يتناولا الطعام معا وأجابتها علياء بود لن أرد يديك ولابد أن نتناول الإفطار سويا...

جهزت مائدة الإفطار.. وجلسوا سويا لتناول الطعام... كانت تلك الجارة طيبة القلب ونمت الصداقة بينهما... إلا أن هذه الصداقة تصدعت عند أول موقف حقيقي... فقد كان لها ابنة لم تتزوج بعد وعند خطبتها ألقت القنبلة القاتلة بوجهها آسفة حبيبتي فأنت فأل سيئ على ابنتيفأنت مطلقة.. ولا أريد منك حضور زفافها...

عندها علمت أن الصداقة شيء زائف بين البشر... أقسمت على ألا تجعل أحدا بحياتها... أغلقت باب التعارف والقيل والقال... وهنا انتصر الشيطان على تلك العجوز واستخدمها لزرع الشوكة بقلبها... توالت الأيام.. بحثت عن عمل ولكن دون جدوى. استعدت أن تعطى دروسا لبعض الأقارب في البداية... فقد كان معاش والدها كبيرا فقد ساعدها على أن تجتاز صعوبة الحياة... كم كانت علياء مدينة لأبيها الميت فلم ينفعها الأحياء الذين مزقوا روحها إربا إربا. وكم كان الله أرأف بها من هؤلاء البشر ومن زوجها الذي أخذه الكبر فأصبح كافرا بأنعم الله. جاءتها مكالمة هاتفية من عملها السابق بالخارج... تلك المحادثة كانت طوق نجاة وتحول في حياتها... أن المدرسة على استعداد أن تبعث لها ببقية مستحقاتها.

تواصلت مع إدارة المدرسة في سرية تامة وتم تحويل المبلغ المستحق لها.. وقد كان هذا المبلغ من المال هو ما جعلها تستعيد قوتها ولكنها أخفت هذا الأمر خوفا من الناس والأهل فالكل سوف يتحدث من أين لها هذا؟ فالقرية صغيرة وما أكثر القصص التي يختلقها الناس عن كل امرأة تسكن بمفردها...

ذهبت إلى أمها وعلي وهي تفرد جناح المحبة لهم وبيدها بعض الهدايا ولكنها فوجئت بأخيها يصفعها صفعة قوية... كانت تتمنى القرب منهم ولكن زوجة الأخ قد لفقت الحكايات وملأت أذن أخيها بالبغض والكره تجاهها.. أدارت وجهها متجهة ناحية الباب

بصمت... فلم تذرف العين تلك المرة دموعها.. بل حبستها بكل قوة ولم تنبس ببنت شفة..

مر عام وعلياء تحاول مع الدنيا تارة تنتصر عليها وتارة أخرى تنتصر هي عليها... خلالها سافر علي للخارج... ولم يكن يعلم أن الصفعة التي تلقتها أخته بسبب زوجته.. سوف يتلقى هو طعنات الغدر من تلك الحية الماكرة... فقد اكتشفت بالصدفة أن زوجها متزوج بأخرى

بالسر ولديه ابنة... فقد طعنت بنفس نظرات الحقد والشماتة التي طعنت بها أخت زوجها... ولكنها حية شرسة...

فقد انتهزت الفرصة بسفر زوجها وقامت بسرقة الخزينة من أوراق وممتلكات وكان من ضمن الأوراق عقود ممتلكات علياء.

سرقتها وحاولت أن تساوم آسر وتأخذ منه مالا. ذهبت عفاف وبحوزتها مستندات ملكية علياء لتعقد اتفاق الغدر.. وتسلبها مالها وأرضها وكل ما تبقى لها.. لكن لعبت الأقدار لعبتها وكان هناك ابنها يزور جدته وسمع الحديث كله:

عفاف: معي عقود أرض علياء وسوف نساعدك في أن تأخذ كل ممتلكاتها.

آسر: في مقابل ماذا؟؟

- مائتي ألف جنيه.

آسر: كثير

- ولكن الأرض تساوي الكثير.

- أريد أن أرى نسخة أو أصل العقود.
- سآتي بهم غدا.

أسرع الابن الصغير منطلقا يسابق الرياح إلى أمه ليقص لها ما سمعه.. استقبلته بابتسامة وحضن كبير... ارتمى بأحضانها وهو يرتعش خوفا على أمه.. قص عليها ما سمعه..

انطلقت مسرعة إلى مكتب محامي طليقها.. ودار بينهما حديث..

المحامي: أهلا أستاذة

علياء: لا داعي للترحاب

المحامي: ماذا تريدين؟

علياء: كم تأخذ من المال لكي تبيع موكلك؟

المحامي: خمسون ألف جنيه

علياء: كثير

المحامي: عشرون ألفا

علياء: اتفقنا

وقصت عليه حكاية العقود..

المحامي: لا تقلقي غدا ستكون عندك العقود

علياء: اتفقنا.

خلقت منها الدنيا محاربة من نوع خاص تخوض معارك ليس لها يد بها.. خاضت معركة الاختيار التي منحها الله لها...

كان كل شيء يقودها إلى الطريق الشائك المتشابك بأشواك النفاق والطمع التي ملأت نفوس البشر.. لم يكن يغريها المال ولا الجاه أو المناصب.. كل ما كانت تحتاجه أمان واحترام لعقلها وآدميتها التي هي أساس كرامتها.. تعلم جيدا أن نفوس البشر بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء.. تعلم أن الدنيا دار محن وامتحان ولكن ماذا يحمل الغد لها.. لا تعلم سوى أنها تخرج من محنة لأخرى ومن ابتلاء للآخر... خاضت حرب الاختيار مرة أخرى عندما استخدمت بعض حيل الشيطان لتدافع عما تبقى من كرامتها... استخدمت الرشوة... وزيف الكلمات.. وبالفعل حصلت على ما تريد بالخديعة.. أفي هذا

إثم أن تكون الحرب خدعة!! تعلمت أولى دروس الحياة... أن تحارب الشر بسوط الشر لتنال الحق. ما أخبث البشر؟؟ وكم أحقر أدواتهم!!!

كم كانت تتزين بالرشوة ومرارة الحسرة تقتلع قلبها... شعرت بنقطة سوداء توغلت بقلبها وأظلمت جزءا صغيرا من روحها.. أي كفن للدنيا هذه!! وأي مقبرة تلك التي دفنت فيها الأخلاق والقيم!! فيها كل شيء يباع والثمن زهيد بخس... كم بيعت كرامة الرجال كما بيع يوسف بالبخس. كم كانت تجارة البغض بضاعة مزجاة... وكم اشتراها البشر بالغالي والنفيس... بالسرقة تباهى الناس وأصبح الشريف شريف المال والنسب لا الأخلاق والذمم..

هكذا كانت زوجة الأخ (عفاف) تلك المرأة التي نزعت منها كل الأخلاق ورفعت برقع الحياء ووضعت كل الغالي تحت قدميها..

كانت في العقد الثالث من العمر. طويلة القامة بوجه مستدير وعينان تميل إلى الزرقة كلون السماء... بيضاء البشرة.. ملامحها تميل إلى البراءة التي تجذب كل من يراها ويوقعها بشباكها. تلك النعمة التي

وهبها الله ما كانت سوى لعنة الله عليها... اشترت الخيانة بالأخلاق والنبل.. اشترت الوقاحة.. تحول اللسان إلى سوط يجلد.. إلى فوهة بركان من الألفاظ تنأى لها الجبين... كانت البلطجة سلاحها... وجمالها المصيدة التي تصيد بها فرائسها...

باعت عفاف الإحسان بالكفر.. تحولت إلى شيطان ذي وجه قبيح بالغدر.. تكره الناس وتحب النفس والمال. تتذكر تلك المرأة عندما افتعلت النار بقلبها ودارت حروب سجال بين الأخ وأخته.

قرر علي شراء شقة بالمدينة. كان يتباهى بها بكل مكان حتى أجلسها بين الرجال تأمر وتنهى سلمها زمام أمره رغم زواجه بغيرها ولكن سهم الخيانة أصاب الهدف وتلك اللعوب وضعت عيناها على الذي يحوز المال الأكثر.

علم مالك الشقة أنه يستطيع أن يستميل هذا الجمال ويحوزه بين ضلوعه رأى نظرة الشهوة في عينيها تجوب جسده وماله

وأملاكه وسيارته الفارهة.

سافر علي بعدها وتوالى الحديث والتدبير بين العاهرة والمالك وانتهى بهم إلى اللقاء بتلك الشقة المشئومة وحدهما..

ووضعوا الخطط والتدابير لسرقة ذلك الزوج باحتراف السارقين واللصوص.. كانت أم زوجها سيدة جميلة ذات عيون خضراء.. قسمات وجهها وخطوط الزمن على جبينها.. كل خط يحمل ذكريات وأيام وأحداث جليلة.. فهي أرملة مذ كانت بأوائل الثلاثين ولديها طفلين والولد الوحيد ذلك الأخ الأكبر...

رحل عنها زوجها وكان بوظيفة مرموقة بالدولة وحيدة حملت على عاتقها تربية الصغار. إلى أن جاءت تلك المرأة اللعوب لتسلبها ابنها الوحيد بعد أن أصبحت شبه كفيفة تتحسس النور بين ظلام البصر لتترك لها صغارها بالبيت وتخرج لتتنزه تاركة إياهم مع تلك العجوز تتولى رعايتهم وتسلبها أيضا مالها الذي تنفق منه... فلم يكن بها من الإحسان شيء حتى لفلذات أكبادها.

تمعنت علياء حال أخيها وزوجته وأمها فلم يكن مقدر لها الاقتراب ولم يكن بمقدورها الابتعاد، فقد انفرط عقد العائلة الهادئة، وتحت

ظل التفكير رجع بها شريط الذكريات إلى تلك اللحظات التي حاولت تلك المرأة أن تتخلص فيها من أم زوجها الكفيفة بدس السم بالعصير ولكن جناح الرحمة والنجاة قد أحاطت تلك السيدة العجوز قبل أن تتم الجريمة..

تدخلت علياء بالقوة وحاولت أن تتحدث إلى عفاف باللطف ظنا منها أنها تتحدث إلى أم أو إنسانة متعلمة خريجة بالأزهر.

ولكنها تلقت صفعة أخرى منها قوية وباحت بكل مكنون بالقلب لتلك العائلة.. ولكنها أقسمت أنه لن يقف لها غير امرأة وأن ترد الصاع صاعين.

علياء: ماذا تريدين يا عفاف؟

عفاف: وما شأنك أنت؟!

علياء: اتقي الله في أولادك وزوجك وأمه الكفيفة

عفاف: وهل أنتِ التي سوف تعلميننني أن أتقي الله

علياء: لا تجعلي للشيطان عليكِ سبيلا. فطريق المكر والخداع طويل. ولن تجني غير الندم الأليم. فزهور عمرك ستضيع بين خيبات الظلام. وتذكري أن قوتك ليست بالسرقة أو فعل المنكرات. بالله ارجعى للطريق القويم. وعفى نفسك بزوجك واحفظي نفسك من عين الطامعين.

عفاف: إليكِ عني يا شؤم النساء. ألا ترين أني جميلة وبيدي أموال أخيك أتنعم بها مع من أريد. وسأعيش حياتي اللاهية فأنا بنت الأكابر الغالية.

علياء: لست غالية والكل يلهو بجسدك يا غانية. وأهلك لم يربوك تربية واعية. بل لم يهذبوا فيك النفس الغاوية.

عفاف: ألم تكتفي بالصفعة وتريدين المزيد لتصمتي إلى الأبد وتكوني كالأموات... بل أنت ميتة.. فأنت مطلقة.. وحيدة بائسة.

علياء: البؤس بؤس الأخلاق... والأعذار الواهية... فلحمك من حرام والنار أولى به. غدا يضيع الجمال ويبقى جمر الحرام يذيب جوفك ويحرق جسدك وتبقى اللعنة لأبنائك يا غانية... فعجلات الزمن تدور وتبقى الأخلاق ساطعة...

عفاف: إن لم تغربي عن وجهي لأقطعنك إربا إربا..

علياء: سوف أغرب عن وجه الغراب... ولقد حكمتِ على نفسك بالغربة عن نفسك وعن دينك وأهلك وأبنائك... وسوف تلقين الجزاء العسير بنار السعير...

هاتفت أخاها بالخارج وقصت عليه ما حدث ولكن غربته حالت دون أن يتخذ موقفا جادا.. تملكها الخوف على أمها فأخذتها لتعيش معها ببيتها الصغير ترعاها بحب.

علياء: أمي يا وجه القمر أضاء وجودك دنياي

الأم: صامتة حزينة منكسرة بائسة من جور الزمان عليها. فهى لم تفعل شيئا لتستحق هذه الحياة...

علياء: هذا بيتك وأنا ضيفة عندك وكل ما أملك ملكك.

ارتمت علياء بأحضان أمها التي كانت ترجوها منذ زمن بعيد لتستمد نور القلب ووضاءة الوجه.. وحلو الدعاء..

مضى عام والكل يغلي على صفيح ساخن ما بين مؤامرات وسرقة وخيانة إلى أن قدم الأخ من غربته إلى بيته بمنتصف الليل. وفور وصوله قامت عفاف وإخوتها بتقييده بالقيود وتعدوا عليه بالضرب المبرح ولم ينجده سوى أنه تمكن من إجراء مكالمة هاتفية لأخته (علياء) يستغيث من ضربات الغدر.

على أجنحة الليل سابقت علياء الريح لنجدته من سيف الغدر. وهاتفت الشرطة وتجمع الناس والأهل وتمكنوا من اقتلاع بوابة البيت ونجدة أخيها والإمساك بتلك الحية إلى حين قدوم الشرطة. ولكن كبار البلدة تدخلوا كل منهم يلقي اللوم على علي لزواجه الثاني ونصبوا له محكمة أن مثل عفاف لا يجب أن أحد يفكر في الزواج عليها. قاموا بفرض الحصار عليه وتلاعبوا به لحل المشكلة واستخدموا الصغار لإطلاق سراح تلك الخائنة وضعف الأخ رغم انهيار كرامته وتنازل هو الآخر عن حقه حينها علمت علياء وأخوها أن رابطة الدم أقوى من أي رابطة بالعالم وأن معدن البشر لا يظهر إلا بالشدائد..

تكاتف علي وأخته معا لمواجهة القدر الذي سطر أحرفه ببراعة لصنع محاربين بالحياة تذوقوا أقسى درجات الألم وواجهوا أسوأ كابوس لهم

وهو النفس وأقرب الناس اليهم.. ومن ظنوا يوما أنهم سكن ورحمة ومودة... ضاعت كلمات الحب وتبدلت إلى نيران تغذيها الحقائد والمكائد.

علمت علياء أن الخيانة لا تقتصر على الرجال بل تفوقت المرأة بذلك. وأن لليقظة ثمن باهظ حتى لا يضيع العمر بوهم الحياة الهانئة والشريك الملائكي الذي لا يخطئ أبدا. ضم (علي) أخته وأدرك كم كان مخطئا بحقها وشعر بما شعرت به من خيانة وغدر.

وبدأت الحية تتلاعب بممتلكاته وأوارقه التي كانت بالخزينة لتحاربه بها هي وشريكها الثري. كل منهم يحمل بين ضلوعه وحوشا ضارية عمياء لا ترى نور الخير أبدا.

ذهب الأخ (علي) إلى شقته التي اشتراها بالمدينة ليستريح بها وإذا به على حين غرة يفاجأ بمن يحاولون اقتحام الشقة بالقوة.

فلم يعلم أن المالك الثري قد غير العقد وكتب عقدا جديدا للحية اللعوب فآلت الشقة إليها وإليه... استدعى الشرطة والتي جاءت على

الفور فأخذوا كل الأطراف إلى قسم الشرطة. وكانت المرة الثانية لدخول علي هذا المكان ولكن تلك المرة على يد زوجته.

وأثناء التحقيق تبين كل شيء وظهر الوجه الحقيقي وتلاشى قناع الحياء والعفة والأمانة. هاتف أخته يقص لها مل أصابه فجمعت العدة والحشود وهرولت مسرعة إلى تلك الشقة المشئومة لتسترد ما أخذ بالغدر بالقوة. وفور وصولها تبين أن أم عفاف داخل الشقة، تلك العجوز الشمطاء التي مزقت شمل العائلة بنفث السم بين الناس، فأمرت الرجال بكسر الباب الحديدي بالقوة وطرد رأس الأفعى بالخارج. قامت بالصراخ والصياح ولكن لم تتوانَ الأخت عن طردها بالقوة. وجلست علياء تنتظر من سيخرج من جحر الغدر لتتلقاه بسلاح الحق. وبالفعل قدم أخو عفاف إثر مكالمة من رأس الأفعى وكان بالعقد الرابع من العمر ضخم الجثة سليط اللسان يسب ويلعن ويريدها حربا ولكن واجهته علياء ثابتة ثبات الحق مهما علا صوت الباطل. وهددها بالسلاح فهددته أيضا بالسلاح والسجن إن اقترب منها. وتلقت علياء اتصالت من رئيس المباحث يهددها بالقبض عليها وبالسجن إن اعترضت لهؤلاء. ولكنها بكل الجبروت قالت: وإن تدخلت أنت

سوف أقوم بسجنك مدى الحياة وإياك أن أراك هنا دون إذن من النيابة العامة وإلا سوف تفقد وظيفتك ويكون الشارع مأوى لأمثالك وأغلقت الهاتف بوجهه. وذهب بعض الأهل إلى أخيها (علي) للاطمئنان عليه بقسم الشرطة وجاء معهم فسلمته أخته مفتاح شقته وسط ذهول الحاضرين أجمعين عندما رأوا أن المرأة الضعيفة تقف وقفة الرجال بقوة ولم تتزلزل الأرض تحت قدميها ولم ترتجف خوفا من سلطان الباطل أبدا.

هرعت زوجته الثانية وقد كانت بالعقد الثاني من العمر طويلة القامة مستديرة الوجه، خمرية البشرة، تعلو وجهها سكينة وهدوء، إلى أخيها لتستقر بتلك الشقة لحين الفصل قضائيا بها فور اتصال هاتفي من الأخت لها. وفور خروج علياء من تلك الشقة بمنتصف الليل شرعت تزيح غبار الذل وتنفضه من على ثيابها بعد معركة دامية. ولكن مازالت أنياب الشر تجوث المكان تدبر المكائد.

فقد أرسل المالك الثرى فتاة ليل إلى (علي) وبعدها يأتى أخوها البلطجي ليقتله دفاعا عن فتاة الليل ويضيع دم علي هدر ولكن عناية الله تحيط المظلوم ويبعث الله العطايا من قلب البلايا. قبل وصول فتاة

الليل لتنفذ خطة الشيطان وصلت زوجته الثانية بدقائق معدودة وفتحت لها الباب عندها تراجعت فتاة الليل وتراجع أخوها البلطجى الذي كان يقف وراءها بخطوات معدودة وكان بقبضته سكين يخفيه خلف ظهره.

غادرت بجنح الليل مرة أخرى وكأنها أصبحت رفيقة دربه وشريكته بالوحدة التي ملأت أرجاء السماء. ألفت طريقها معه ولم يصبح بتلك الوحشة التي كانت تراه بها بالأمس. انتظرت بمحطة القطار وكانت دقات الساعة يتردد صداها لتعيدها إلى قطار الذكريات مرة أخرى. نما بستان الأمل بين ضلوعها ورأت وميض الضوء ينبعث من بعيد عندما توسدت صدر وقلب أخيها وكانت مأمنه وظهره وحصنه. تلألأت نجوم السماء تحت ظل القمر لينشر ظلال المحبة من جديد.

كانت كعود أخضر لين يعتصر بكل مرة ولكن التجارب حولتها إلى شجرة ناضجة تضرب بجذور الحق بأرض الباطل.

تسبح عائدة إلى قطار الذكريات ووميض الأمل يداعب روحها من جديد.

ولكن يبقى ذلك الزوج المترصد لها بأسلحة الحب الملتهبة لرفض الأنثى له بل وتلقي له بقايا المال لتنال الحرية..

ما أصعب إحساس الرفض لدى الرجل الشرقي الذي اعتاد على أنه سيد له جواري كالملوك بقصص الأساطير القديمة يتنعم بهم وقت ما يريد.

كان يراقبها بكل الحقد والحب يتمنى أن يراها ولو لمرة واحدة فقط. لكن القرار بيدها بعد زواجه بغيرها وبمرارة الحسرة التي كادت تقتلع روحها.

مر على زواجه الثاني عام تقريبا خلالها أنجب طفلة أسماها أمانى... وبعد عام آخر أنجب الابنة الثانية... ولكن الله توفى

الابنة الأولى له (فقد ماتت الأماني بقلبه)... و توالى بعدها الفقد فقد والده الذي أغلق باب الرحمة ببابها بعد معاناة من المرض فقد أصيب بشلل نصفي وبقي على حاله إلى أن توفاه الله.

ذاق آسر مرارة الفقد واتهمها أنها شامتة به ولكنها كانت تعلم أن المال الذي أخذ قهرا لابد أن يعود إليها ولكن بطريق العودة لابد أن يأكل كل من يقابله كالنار تأكل ما يقابلها دون رحمة أو شفقة.

وتوالت السنون وقررت علياء بناء بيتها الخاص بها على الطراز الحديث وشرعت بالبناء ولكن يد الغدر ممتدة بكل مكان فقد كان ابن عم آسر رئيس الجمعية الزراعية وتآمر الاثنان على تلفيق قضية لها وأن يوقعها بشباك الكراهية مع جيرانها. فقد حرر

محضرا بالتعدي بالبناء على قطعة أرض ولكن حدود تلك القطعة كانت لجارها وليست لها. وتولت الوحدة المحلية بقريتها إرسال قوة أمنية لإزالة المخالفة.

فوجئت علياء بالقوة تتدفق من العربة، مدججة بالسلاح، يتبعها بخطى متثاقلة جرار كبير للهدم من الوحدة التابعة لها.

وفور وصولهم أوقفتهم بقوة وتحدثت مع الضابط الذي يتولى المهمة وأمرت بالاطلاع على المحضر وحدوده وعندما هاجمت المشرف

بالجمعية بأن الحدود ليست مطابقة وأن ذلك مخالف للقانون تراجع على الفور بل وتلقى ضربة قوية من رئيس القوة.

وأقسمت على أن تجعلهم عبرة لكل الناس وأن تأخذ حقها بالقانون. حياها ضابط الشرطة بكل شجاعة وتراجع وسط ذهول الحاضرين. استكملت علياء البناء بناء البيت وبناء الروح، تعلمت الصمود وعدم الخنوع لأي عدوان أو جور.. كل تجربة وكل خطوة تخطوها بحياتها تركت ندبا وأثرا وخبرة وتضافروا معا لتتحول إلى

شخصية جديدة صامدة صمود الجبال في وجه أعاصير الحياة.

قررت علياء أن تبدأ حياة البراعم من جديد وأن تخوض التجارب وكان أجرأ قرار لها أن تلتحق بالجامعة لتدرس ما كانت تبغيه منذ زمن بعيد. كل قرار لها بالحياة صدمة لكل من يعرفها بل وللناس أجمعين... الكل يتساءل ماذا تريد تلك المرأة وهى بتلك السن.. كانت في النصف الثاني من العقد الثالث... فهي مقبلة على الأربعين. وسط الذهول والصدمة قررت خوض تجربة العلم من جديد لعل الله يبعث لها حياة من قلب براعم العلم أو ربما تجد ما تبتغيه من أمل

بأشخاص لم ترَ قلوبهم ظلمة الليل الموحش بعد وتكون قلوبهم مثل براعم الأزهار ببراءتها ونقائها التي لم تمتد إليها يد البشر لتلوثها وتفسدها.

التحقت بالجامعة واندمجت مع الطلبة فقد رأت فيهم من البراءة والحكمة والعلم فقد تعرفت إلى تلك الفتاة ذات العيون السوداء والوجه المشرق الذي يشع براءة الأطفال إنها مريم تلك الفتاة التي أحبتها وكأنها ابنتها.. كانت تساعد الكل دون ملل أو

ضجر.. متفوقة بدراستها ومحط أنظار واحترام أساتذتها... وعبير تلك التي تحفظ القرآن عن ظهر قلب ويفوح منها عبير القرآن، متدينة متفوقة والكل يتمنى وصالها.. وغادة تلك الفتاة الهادئة الجميلة المتفوقة التي تشع بريقا من الذوق والكمال... وريم تلك الفتاة المهذبة صاحبة القلب الندي. وتلك الطفلة البارعة ريهام ذات العيون الخضراء والتي تملأ أرجاء المكان بحركات طفولية كانت مصدر حياة لها.. ونشوى التي تكبرها بعام وتعرفت إليها عبر أستاذها فهي منبع الحنان والتشجيع المتواصل ونقاء القلب وكأن الله يعوضها بأشخاص ليتدفق نبض الحياة بأوصالها من جديد...

ولكن هناك من يشبه عفاف في أفعالها الخبيثة وطليقها في صفاته المقيتة... كانت تشم رائحة كل فرد وتقرأ وجوه البشر ببراعة وتعرف أغوار كل من يقابلها بالحياة... تلك البراعم وهبت لها الحياة من جديد وقد أضاف العلم لها شيئا لم تتخيله بحياتها أبدا. فقد انشق القدر عن شخصيات من زمن مضى، وأخلاق كادت تندثر، تساعد وتحتوي الكل ليضعوا أرجلهم على طريق الله... كل ذلك دون مقابل سوى أن قلوبهم أصفى من العسل المصفى وأنقى وأطهر من قلوب الملائكة.

بالبداية كانت تظنهم من الأساطير ولكنهم موجودين بالفعل، نعم هي تراهم كل يوم، قلوبهم مفعمة بالخير والنصيحة، لقد أراد الله أن ينشق القدر ليبعث بقلبها أملا أن الخير مازال موجودا بالحياة.

وأن الأخلاق باقية بالدنيا بقاء الشمس والقمر بها. وأن المثالية مازلت موجودة حتى ولو طغى الشر على نفوس البشر وتمكن منها لبعض الوقت. جذبها ذلك الشيء الخفي بقلوب هؤلاء البشر.

كانت بالبداية تهاب التجربة ولكن عند أول محاضرة لها جذبها الاختلاف والتباين الشديد وأسلوب كل دكتور عن الآخر. منهم من جذبها إلى عالمه ومنهم من نفر قلبها وروحها منهم. كانت تنشد شيئا مختلفا يجتذب روحها بقوة. فقد كانت ترى تلك الدكتورة ببساطتها وأناقتها وحديثها المبسط وكأنها من زمن الذكريات.

وذلك الدكتور المبدع إسلام عندما يلقي الشعر بأسلوب مرح مبسط ممزوج بنصائح دينية عميقة قريبة لكل الطلبة. كانت ترى اختلاف الرأي بنفس النص لكل منهم... وكان له الفضل الأكبر بأن تتسع مداركها... كان ينظم الشعر ببراعة وإتقان وكانت مجادلة بالرغم من جهلها إلا أنها كانت سعيدة بإخراج أفضل ما لديهم ورؤيتهم يتحملون أقصى درجات الجهل بصبر وجلد. كانت تحب الشعر بشبابها وتتمنى لو أنها مثل هؤلاء العلماء بيوم من الأيام.. كانت دائما تقول سوف أسرق ذلك الشعر الملائكي دكتور.. لكنه دائما يجيب بابتسامة بسيطة... وهذا الدكتور الجاد بعمله عبد الله والتي كانت تستفزه بلكنتها الغريبة باللغة.. وكان محقا... ودائما ما يصحح لها. تعلمت أن العمل بإتقان يفتح أبواب النجاح والمعرفة وأيضا أبواب

السماء وتحفهم الملائكة دائما. خطواتهم مكللة بتاج من نور العلم والدين.

وتلك الدكتورة الشابة الجميلة مروة تعلمت منها الكثير عن كيفية الكتابة الصحيحة... مجتهدة دؤوبة مرحة... فهي تدين لها بالكثير والكثير... أما تلك الدكتورة الشابة الجميلة الصغيرة رغدة تتمتع بجمال وذكاء متقد.. ناصحة محبة لكل من حولها... كانت على استعداد لتنعم وتنهل من علم هؤلاء بالرغم من مواجهة الحياة ومصاعبها التي كادت أن تأسرها بقيود العجز. لم تزل أنياب الشر تتعقب علياء بكل مكان وقضت المحكمة بغيابها بالسجن عليها عام وغرامة غيابيا وعندما جاءها الضابط لتنفيذ الحكم علمت أن آسر وراء تحريك تلك القضية التي تخص البناء واستأنفت الحكم. وانطلقت بذلك اليوم للمثول أمام القاضي فأغلقت هاتفها وغادرت والصمت يجثم على صدرها وبسمة تعلو ثغرها لتلقي التحية على كل من يقابلها بذلك اليوم التي سوف تمثل به بالمحكمة. وصلت إلى قاعة المحكمة بانتظار دورها. كانت رقم مائة وواحد وعشرون.

جلست تستمع إلى أنواع شتى من القضايا وجذب انتباهها تلك العجوز التي لا تستطيع المشي.. هزيلة الجسم.. بها دب ضعف المشيب.. تبكي بحرقة ومرارة. اقتربت منها سائلة: ما بك أمي؟ أجهشت العجوز بالبكاء وشرعت تحكي حكايتها.

وتقول إن الميت لا يرجع للحياة أبدا وأن هناك أحياء أموات، عندما يرميك أعز الناس إليك بالشارع بعد شقاء وتربية وعمرك كله لا يساوي رغيف خبز أو علبة دواء أو سرير نظيف تنامين عليه أو حتى لبتسامة كاذبة، أو كلمة حب من وراء القلب... فقد فقدت جميع أبنائي ولم يتبقّ لي سوى حفيدان تزوجا في بيتي كل منهما يقطن بشقة مستقلة إلا أن الطمع وقسوة القلب طغت على روح أحدهما بسبب زوجته... التي كانت تكيد لي وتحرمني من الطعام لأيام بل وتسبنى وتطاول الأمر بها بضربي وأنا بهذا السن... كانت تريد التخلص مني لتستأثر بالبيت. وعندما علم حفيدي الثاني بما يفعله أخوه وزوجته نشبت معركة بينهما والأخوان الآن بينهما حروب وكاد الأخوان يقتلا بعضهما.. واستكملت حديثها ودموع القهر تعتصر روحها وتتعالى التنهيدات ويزداد أنين الروح.. وكأنها تعاتب ربها بأنه تركها بالدنيا

وأخذ أبناءها... كانت الأحرف تتثاقل من بين شفتيها لتخرج الكلمات مكسورة ككسرة قلبها وحسرتها على صراع الإخوة الدامي بسببها. لقد كانت التجاعيد تملأ وجهها الذي يعلوه نور وظلام ويأس...

كانت ترفع يدها نحو السماء تتضرع للّه أن ينتقم من تلك المرأة بحرقة ودموعها تنساب بين تجاعيد وجهها البائس لتروي كل ذكرى رسمت على وجهها خطا أو تجاعيد مرارة أرذل العمر..

أطرقت تستمع إليها لتزيدها بغضا للبشر وقسوتهم من أجل المال. بقرارة نفسها أشفقت على ذلك الحفيد الطيب وتذكرت أن كل الصراعات بالعالم قامت من أجل النساء أو بمكرهن وخداعهن مستغلين أزواج ضعاف كأنهم أعجاز نخل خاوية تحركها أحقاد النساء.

وأطرقت منصتة إلى الكثير من القضايا وكان من ضمنهم ذلك الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة عشر فهو متهم بضياع أنبوبة غاز أو سرقتها... كانت أمه تقف بجواره وهو محبوس بالقفص بقاعة

المحكمة تبكي وتقسم للقاضي أنها سرقت منه عند توزيعها وأنها لاتحوز ثمن تلك الأنبوبة. تنظر إلى طفلها بين أسياخ من نار الفقر والجهل والحاجة وصوت قلبها ينادي أن أنياب الفقر هي من فعلت بنا ذلك..

وجاءت تلك القضية التي تليها وهي خيانة أمانة فقد استدان رجل مبلغا من المال من تاجر. ووقع على وصل أمانة ولم يوفِّ الدين. وقد كانت قسمات وجه الرجل تدل على احترام وهيبة ولكن لابد أن يسدد الدين... وشرع يترجى القاضي ويتوسللصاحب الدين أن يمهله مدة من الزمن لسداده لأنه كان يستدين لمعالجة أمه المريضة التي كانت بحاجة إلى عملية قلب ملحة..

ما أقسى الحياة عندما يحتاج العزيز وتذله الحاجة لغيره وكم كان علي بن أبي طالب صادقا عندما قال الفقر بالأوطان غربة.

وجاء دورها بعدما تعلمت أن الحياة والدنيا حصان جامح لابد أن يكون قائدها فارسا مغوارا متمكنا بلجامها حتى لا يقع بكبوات الحياة القاتلة...

وبانتظار دورها وبينما هي مستغرقة بسماع قضايا البشر لفت انتباهها اسم طليقها وزوجته ينادي عليهم نائب القاضي.. وكان بالقاعة المقابلة... وأمرت محاميها التحري عن الأمر بعد ذلك وجاء دورها للمثول أمام القاضي وتلعثم محاميها بالدفاع وطلبت من القاضى الدفاع عن نفسها... أعطاها الإذن بذلك وطلبت من القاضى الاطلاع على تقرير الخبير الذي أقر أن قطعة الأرض لمالك آخر وليس هي وقدمت إليه المستندات الدالة على ذلك وأن يعاقب كل من رئيس الجمعية والمشرف لتوريطها والادعاء عليها بالزور والبهتان دون وجه حق والتعويض المادي للضرر النفسي والمادي الذي وقع عليها...

ورفعت الجلسة وهي تنتظر بقاعة المحكمة قرار القاضي وهي على أحر من الجمر... أعطت الضابط الموجود مبلغا من المال ليتحرى النتيجة وذهب وأتى بقرار القاضي بالبراءة ومعاقبة كل من تسبب لها بالضرر... غادرت على جناح السرعة ورياح الشوق لولدها تحملها إلى بيتها وأهلها.. هاتفت أمها التي بكت وهي تنهال عليها بالعتاب لذهابها وحيدة تواجه قدرها..

وقالت: كم هانت عليك نفسك

أجابت علياء: لم تهن أمي ولكني تسلحت بسلاح اليقين بالله أنه لن يضيعني..

وجدت ابنها يصلي ودموع الحزن تنساب على خديه. وعندما سمع صوت نبض أمه وثب من الفرح وارتمى بأحضانها يبكي فرحا وشوقا يشم عطر أمه ويتعقب أنفاسها التي كانت تدفئ أرجاء عمره وقلبه.

وتحرى محاميها عن سبب ذكر اسم طليقها وزوجته بالقاعة المجاورة.. فوجد أن الزوجة قد نقلت ملكية بيت طليقها بموجب توكيل رسمي عام لحيازتها وتتخذ كافة الإجراءات بغيابه.. وهي التي تتسلم كافة الإعلانات الموجه منها إلى زوجها... لقد أراد الله أن يطمئن قلبها وهي في خضم المحنة التي كانت بها... تآمر عليها واغتال روحها.. وسلب أموالها.. فإذا بأداة الغدر تطعنه بظهره، بغيابه، وتسلبه ماله وأملاكه... كم كانت ثاقبة النظر! وحاصفة العقل ترى بنور قلبها.. وترجح عقلها... انحنت للرياح العاتية وتنازلت بالبداية... ولكنها أعطته سيفا ذا نصل حاد قاطع وليس مالا. قررت ألا تخبره بما رأت وعرفت ليذوق وبال تفكيره وغدره بها. لقد شفى

الله صدرها بعض الشيء وقررت أن ترى وتراقب بعيني الصقر بداخلها ما سيحدث بالمستقبل...

انتشرت مصابيح الأمل بقلبها وأصبحت أشجار الحياة لآلئ تضيء سماء دنياها... ونسمات البحر الباردة تسابق الرياح العاتية على بساط من السحر والخيال لتبعث لها بأزهار الياسمين لتنعش روحها بعد تعب وأنين... لقد احتضنتها السكينة والرحمة بعد رحلة شاقة. ولأول مرة تستعيد سيف الحق الذي كاد أن يضيع بين خيبات الظلام... فالذكاء ليس أن تطعن في الحرب ولكن أن تعرف متى يكون الوقت الملائم لتحافظ على حياة إنسان وتمنعه من السقوط بالهواية أو ببئر معطلة أو تنقذه من متاهات القصور المهجورة بالقرآن..

كم كتبت أقلام الملائكة سيئات وحسنات!!

كم كان أنين الملائكة عند رؤية الإنسان يبعث بالأرض الفساد!!

ولكن الله اسمه العدل، الذي يقتص من الظالم، ليطمئن قلب المظلوم أن الله سمع نداء قلبه وهو ساجد بجنح الليل والناس نيام.

فإن مقدرات البشر قد سطرها الله قبل مولد الإنسان. كل إنسان يسير نحو قدره الذي قدر له سواء خير أو شر...

فلا تحزن أيها الإنسان من اختبار أو فتنة فالله لم يخلق الجنة والنار عبثا ولكن يختبر صبرك وقوة إيمانك ليرى كم من الحب الذي يملأ قلبك تجاه ربك... وقد قال الله في كتابه: "أم حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون"... وصدق حين قال "وما خلقناكم عبثا".

فهل أنت أيها الإنسان مستعد لاجتياز اختبار الدنيا وفتنتها؟؟..

وكم من المحزن أن نرى أشخاصا يتنازلون بكل بساطة عن كل مبادئ الله ليحظوا بقليل من المال أو قليل من الحب الزائف أو يعطى مبررات للسرقة!!..

وكم من المخجل أن تسرق وتبني جامع!!!

فالله مالك الكون كله لا يريد أشياءكم البائسة ولكن يريد نقاء قلوبكم وثباتها عند كل فتنة.

ومرت الأعوام وتوالت النكبات لطليقها فقد مات أخوه زوج العاشقة الشمطاء التي كان يحبها... وفجأة توقف قطار الذكريات بمحطة البنزين... فقد كان يحاول جاهدا أن ينال نصيبه من تمويل سيارته. ولكن القدر وملك الموت كانا بانتظاره عند تلك الحفرة المغطاة بغطاء من الحديد المتهالك المؤدية إلى مصرف المياه القذرة... وعند وقوفه عليه تسابقت اللحظات وتعطلت الدقات وهو يسير بسرعة البرق نحو حتفه، لينقلب الغطاء به وإذا بقطعة حديدية بارزة تقطع رقبته فجأة...

يا للهول ويا له من مشهد ويا لها من لحظة أن تكون الحياة لحظة.

وأن يكون الموت أقرب من رمشة عين أو نفس تتنفسه... فلم يتسع له الوقت لنطق الشهادة ولم تفتح له أبواب السماء للدعاء بل استقبلته الملائكة بكتابه الذي سطره بنفسه طيلة حياته...

ضربة القدر بالصدر تهلكه وضربة السيف بالعمر تدميه فلا القدر أحياه ولا السيف أنقذه فيامن تأمن الدنيا توخى فالموت واقف بباب العمر يحرسه بأنفاسه فلا باب تواربه ولا صديق تناديه وانشد جنان الخلد

بالعمل مهما علت قيود الأسر والفتن وعلت الأصوات قاطبة بأن الأخ قد مات. وحاولوا بكل الجهد إخراجه من تلك الفتحه الضيقة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة.

شق الخبر رياح السرعة إلى أمه تلك التي أغلقت باب الرحمة بوجهها ولكن دموع المظلوم سابقة تخطفتها الملائكة على أجنحة من نور لتشق السماء. فذاقت بكاء القلب والروح وذاقت مرارة الفقد على ولدها. فلم يكن يعنيها حفيدها الصغير واستحلت مالها وفراشها... والآن تكفن الأخ وأباه بملاءات وأقمشة من أشيائها التي اغتصبوها... كفنوا بكفن الغدر الذي طعنوه بها..

سقطت الأم مريضة وأصبحت طريحة الفراش إثر الصدمة وتخلى عنها أبناؤها جميعا ووهنت وضعفت وأصبحت تخدمها خادمة مقيمة معها ترعاها بمقابل المال... فأي ذل هذا الذي يتذوقه الإنسان عندما يتملكه الغرور والكبرياء. لم ترحم علياء عندما كانت ترجو فيهم رحمة.. كم كانوا وحوشا ضارية تنهش بلحمها... كم سمعت وطعنت بسيف الغدر والكراهية منهم ولكن هيهات هيهات فالله سيف الحق قد أخذ بثأرها منهم...

تخلى عنها أبناؤها الذين دافعت عن ظلمهم... وأطعمتهم نيران الطمع. وفيهم غرست بذور الشر وروتها بدماء الآخرين والآن أين الرحمة والبر؟؟؟... تقاتلوا جميعا لأجل الميراث بل وأخذوا أرضها وهي على قيد الحياة (كما أخذ ابنها أرض علياء). ماتت وهي حية على فراشها ولم تسعها قلوب أبنائها ولم تسعها الدنيا برحابتها... لأنها نسيت الجبار القوي.

ولكن فرحت الزوجة العاشقة لموت زوجها فقد خلى الطريق لها لتتزوج أخاه الثرى وعاشقها. لم تحزن عليه ولم تلبس الأسود كعادة كل النساء العفيفات ولكن تزينت وتعطرت وكأن يوم زفافها يوم وفاة زوجها. طار قلبها فرحا وطربا لوصل العشق والحب.

وقرر الاثنان الزواج العرفي سرا حتى لا تعلم زوجته الثانيةولم يكن يعلم أن سيف الغدر قد سبقه عندما نقلت ملكية بيته لنفسها سرا. فحب الأفاعي لا يعرف الأمان والاطمئنان ومن غدر مرة فسوف يخون ألف مرة.

هي فقط من كانت تراقب بعيني الصقر وكل خيوط اللعبة بيدها وكأنها تشاهد مسلسلا دراميا وكل الأحداث بيدها.

استمرت الخيانة بالسر لأعوام ثلاث لم يلاحظ أحد أي شيء ولكن للقدر حديث آخر.. فقد تخرج ابن أخيه من الجامعة وأخذه للعمل معه بالخارج. وكان الولد يبعث لأمه لتقابل عمه وزوج أمه هناك دون علم أحد. إلا أنه أخطأ عندما كانت تراسله بصورها. وكانت كلمات الحب الملتهبة على هاتفه. وأصرت زوجته الثانية على السفر معه بسنة من السنين ولاحظت مكالماته المتأخرة بالليل وانتهزت الفرصة لتفتش وتنقب بهاتفه وصندوق أسراره وإذا بها تجد صورا وفيديوهات لزوجها وزوجة أخيه على هاتفه وفتحت الرسائل لترى حديث الحب والعشاق.

انهارت ولكنها تمالكت قلبها ونقلت كل الفيديوهات والصور لهاتفها وأيضا رسائله كلها لتكون حجة عليه لا عليها. وبدأت بنشر تلك الصور على الإنترنت وعلى صفحات كثيرة وبدأت فضيحة الزوج وزوجة الأخ والتي على إثرها دخل ذلك الطليق إلى المستشفى إثر نوبة

سكر حادة. وبدأ صراع الحيات بالوادي. كل واحدة منهن سلاحها التشهير والتجريح والبلطجة.

كل واحدة منهن جمعت عائلتها لشن حرب على الأخرى. فقد جمعت زوجته الثانية إخوتها الست وأقاموا بالبيت المنهوب استعدادا لطرد ذلك الزوج منه.. وأخلوا البيت كله من أثاث طليقته الأولى. بل وقد حطموا البلاط والحمامات وخلعوا أحواض المياه بالدور الأرضي.

أما العاشقة الشمطاء فقد ذهبت لإخوتها لجمعهم للذهاب لزوجته ببيتها وضربها هناك ولكن انقلب الأمر عليها فلم يكن أحد من أهلها يعلم بزواجها من أخي زوجها سرا وعرفا. وبدأ الحساب ووقعت تحت طائلة الأهل الذين نفروا منها وعنفوها ولكن عندما يتملك الحب والشهوة امرأة لا ترى بعقلها بل بقلبها الذي قادها إلى الهلاك.

لقد ضرب الله الظالمين بالظالمين وفتكت طيور الظلام ببعضها بجنح الليل المظلم. فلم يعد هناك سلام وأمن بل تبدلت إلى أشواك وكأنها رؤوس الشياطين تقطع أمعاءهم بل وتروي عطشهم ماء يغلي كالحميم... لقد استغلهم إبليس وأطعمهم من طعامه وأسقاهم من شرابه

فلم تروِ ظمأهم.. بل أصبحوا يرتوون من مياه البحر المالحة التي لا تروي ظمآنا أبدا.

كل يدفع ثمن الدمعة الغالية التي انحدرت كحبات اللؤلؤ من عينيها تشكي قهر الناس لها. كم تعثرت بحياتها بسببهم! وكم كانت جمرات الحقد تأكل قلوبهم!! وكم فتكوا بها بأحاديثهم!

كانت تصلها كلماتهم كسيف حاد ذي نصل مدبب يتوغل صدرها بصمت. وكم من الوحدة قاستها! وكم من التجارب خاضتها!! وكم كانت على شفا الانحناء لذلك الشيطان ولكن رحمة الله ويده المبسوطة بجنح الليل لتتلقى دمعة المظلوم لتكون سيفا على رقبة الظالم.

فلم تكن حياتهم بها مساحات الود التي تتسع لأحضان المحبين المخلصين بل كانت مساحات من الفراغ الأجوف الخالية من المشاعر والأحاسيس الحلال. لم يكن بعالمهم مساحات الرحمة ولم تخشع قلوبهم وجوارحهم ولم تركع جباههم لنور ربهم يوما.

لقد تبعثرت حروفهم وتلعثمت كلماتهم فانكسرت كما تكسر عيدان الحطب لتأكلها النار، هكذا كانت حياتهم، هم الحطب لنار الدنيا والآخرة.

دفعت العاشقة ثمن الغدر وأصبحت منبوذة من الأهل.. وأصبحت حديث البلدة كلها فهي الزوجة الثانية لزوجها الأول الذي كان يقطن هو وزوجته بالشقة المجاورة وكان حديث الحب بينهما ما أثار غيرة زوجته ونشبت نار الفراق بينهما فتركها وهي حامل بابنه لأجل تلك العاشقة... لتعيد نفس الكرة مع أخي زوجها لتتزوجه سرا وعرفا...

تلك العاشقة كانت كمعول للحرب وأداة الشيطان لتمزيق جسد أسر آمنة ليذوقوا مرارة الأيام بسببها... ولكن آن الأوان لتدفع ثمن الخيانة على يد ضرتها من أخي زوجها وعشيقها.

تسابقت الأيام وكأنها بمضمار سباق الخيل ليقرر طليقها النزول من الغربة بإجازة لمواجهة تلك الحرب الضارية بين زوجاته.

وفور قدومه وجد بوابة البيت مغلقة بجنزير حديدى بأقفال عده.. وزوجته بالشرفة بالدور العلوي تسبه وتفضحه بكل الكلمات التي تحط

من منزلة الرجال... وكل المارة يقفون ويشاهدون قذائف الكلمات بينهما...

يا الله كم الدنيا قصيرة، أغلق بوجهها باب الرحمة فأغلق الله بوجهه باب الرحمة أيضا... تكرر الموقف ورد الله الصاع صاعين له عندما ذهبت إلى نفس البيت لتأخذ متعلقاتها فوجدته مغلقا بجنزير حديدي بأقفال عدة... ما أعدلك يا الله وكم داويت جروحها ودارت دائرة الزمن لتطحن كل مسيء تحت عجلاتها.

وسافرت الكلمات عن عجز الشكر لله فسجدت صامتة تحت ظل العدل التي رأتها بعينيها بعد أن تأرجحت سحب الثقة بنفسها

وبكل جميل تعلمته بحياتها... وتعلمت أن تذكرة قطار الجنة باهظة الثمن فليس كل من يحمل قلب إنسان. ولن يدخلها إلا من كان إنسانا ذا قلب سليم.

لقد تخلوا عن كل معنى للإنسانية وعبثوا بمقدرات البشر..

ولم يعلموا أننا كلنا على سفر بيوم من الأيام وإنما هي عدتنا التي اخترناها لأنفسنا.. فكم جميل أن نفتش بحقيبة الذكريات عن كل

ذنب فعلناه لنتوب عنه قبل فوات الأوان... ونستظل بستر الرحمن يوم اللقاء. ولكن تكبر العبد وانحناءه لنزواته وأهوائه واتخاذه شيطانه هواه ليظلم ويعطي لنفسه الأماني بدنيا ليس خالدا فيها وليست ملكه. لقد اكتست الأرض بذنوبهم وأفعالهم فكيف الرجوع والطريق أوشك على الانتهاء؟؟؟

أتى طليقها من الغربة ليذوق بعضا مما ذاقته ولكنه جمع الأهل

وكسروا الأقفال الحديدية ودخل بيته ليراه أرضا خربة مثل قلبه لقد استولت زوجته ذات العيون الجاحظة على الأثاث وكسرت الأحواض والبلاط ورمت له غطاء قديما لينام على الأرض بتلك الليلة.. كم ذاق مرارة الفقر وهو الغني!

كم ذاق مر القسوة والطمع مثلما فعل معها!!!

ونزلت دمعة على خديه مثل الدمعة التي انزلقت من عينيها.. وجاء مدير أعماله لينقذه من تلك الكارثة التي كادت أن تودي به

مدير أعماله: ماذا نفعل؟

طليقها: لابد أن نسترد البيت ونعلم ماذا أخذت.

مدير أعماله: أتعتقد أنها استولت على العقود

طليقها: لا أدري ولكني كنت أضعها بحقيبة يد صغيرة بهذا الطابق

مدير أعماله: لا يوجد سوى بلاط مكسر والشقة خالية تماما.

طليقها: ماذا نفعل؟

مدير أعماله: لابد أن نستشير محاميا أولا

طليقها: نعم لابد أن نفعل ذلك

مدير أعماله: ولكن قبل كل ذلك لابد أن نأتي برجال من الصعيد ليقيموا بالبيت وندفع لهم المال.

طليقها: لماذا؟

مدير أعماله: رجال الصعيد قلوبهم ميتة ومعهم سلاح وسوف يرهبون زوجتك وأهلها فلا تتمكن حتى أن تخطو خطوة خارج هذا البيت.

طليقها: نعم لابد من ذلك

مدير أعماله: سوف أتصل بشخص يعرفهم وأتفق معهم

طليقها: اتفقنا

واندفعت قوة من رجال الصعيد وجوههم تعلوها قسوة فقد كانوا عشرين رجلا مفتولي العضلات وملثمين لا يظهر منهم سوى عيون كعيون الذئاب بمنتصف الليل وكل منهم يحمل سلاحا آليا كأنه يخوض الحرب التي لا تعرف الأخلاق ولا المبادئ.

أقاموا بالطابق الأسفل وحرسوا بوابة البيت فأصبحت زوجته حبيسة شقتها لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة حتى لجلب الطعام.

ذهب طليقها ومدير أعماله إلى المحامي واتفقوا على صيغة قانونية لاسترجاع بيته وأمواله منها ولابد أن توقع عليها.

دام حصار المنزل والشقة عشرة أيام متواصلة لا أحد يستطيع الاقتراب من ذلك البيت وإلا هلك. فقد قطعوا عنها الكهرباء والمياه بل وأخذوا منها هاتفها عنوة.

وتجمع أهلها لنجدتها واتفق الطرفان على جلسة عرفية من كبار البلدة لوضع حل للمشكلة. كان الاجتماع ببيت أحد الوسطاء وكانت من بينهم زوجته

زوجته: ماذا تريد؟

زوجها: أنت امرأة خائنة فقد سرقتِ بيتي وأموالي.

زوجته: أتعتقد أني أقبل أن تتزوج من امرأة أخرى وأنا التي لم ترضَ أن آخذك وكانت على ذمتك امرأتك الأولى. لقد اشترطت

طلاقها قبل عقد القران. ألم تفعل ذلك؟ أم ترد لي الذي فعلته؟؟

زوجها: أنت تغيرين الموضوع

زوجته: بل هذا هو الموضوع خنتني فخنتك ومالك مالي الآن، لي أنا وأولادي. لا لأحد غيري.

زوجها: لم تسرقني زوجتي الأولى ولم تخني وأنا أحب زوجة أخي فتزوجتها.

زوجته: لقد تزوجتها سرا وعرفا بدون علمي

زوجها: لأنى خائف على مشاعرك

زوجته: أه يا للعجب من الكذب!!

زوجها: أنتِ خائنة ولن أتركك بحالك أبدا ولابد أن تردي لي أموالي.

انهالت زوجته بالبكاء والصراخ بوجهه وانهالت على وجهه بالصفع فلم يتمالك نفسه من الغضب وصفعها هو الآخر وتدخل الأهل بالاجتماع لفض الاشتباك.

جلس كلا الزوجين كل منهما يرمق الآخر بنظرة الحقد والغل والتوعد بالقتل. وقال أحد الحاضرين باللين لزوجته: أترضين بالطلاق وتشريد ابنتك

زوجته: نعم أرضى

أحد الحاضرين: ولكن تذكري جيدا أن المقيم بالبيت الآن مجموعة مسلحة من الصعيد كل واحد منهم لا يهمه سوى المال ولا نأمن عليكِ

منهم وأنتِ وحيدة بينهم ولعلك تقعين فريسة بين أيديهم. فتذكري ذلك جيدا أو أن تبقي على ذمته ولكِ شقة مجهزة تماما بكل شيء وهو ملزم بالإنفاق عليكِ أنتِ وابنتك وتعيشين بكرامة.

زوجته: كرامة!!

أحد الحاضرين: نعم فالناس لن يطلقوا عليكِ لقب مطلقة للمرة الثانية وأنتِ لا تملكين وظيفة لتنفقي منها لو حدث ذلك. كما أنك لا تملكين منزلا أو مكانا تقيمين فيه.

صمتت زوجته وصدرها يعلو وينخفض حقدا وضيقا ويأسا من حالها.

زوجته: سأبقى زوجته وأعيش شرط أن يكون لي شقة بالمنزل باسمي لا يقربها هو ولا أي أحد من أهله ويتكفل بالإنفاق بما يناسبني.

أحد الحاضرين: نعم الرأي يا بنيتي

الزوج: وقعي على تلك الورقة التي تضمن رجوع بيتي لي وأنا موافق على طلبك.

كل منا يعيش على هامش هذه الحياة كهامش تلك الصفحة البيضاء التي نكتب عليها بالامتحان. نضع فيها أفكارنا وأحلامنا بأقلام رصاص وبخط باهت حتى نتمكن من محوها وكتابة غيرها إن لزم الأمر عندما نرى أن ما نضعه في هذا الهامش لابد أن يتغير ليناسب موضوعات الحياة التي نسطرها بأيدينا. ليسير التسلسل المنطقي لوضع نهاية لكل فرد منا بهذه الدنيا بخط يده وبقلمه وبأفكاره التي رسمها بذلك الهامش بالبداية.

هكذا كان طليقها وزوجته وعاشقته هؤلاء سطروا بأيديهم أفكارهم على هامش ورقتهم البيضاء بالبداية. وافق طليقها على شرط زوجته الثانية. ووافقت على التوقيع للتنازل عما سلبته. لقد وقعت في الحيرة بين انفصالها وبين كونها ستكون مطلقة للمرة الثانية.

وهنا كانت مجبورة على العيش مع زوجها فهي بلا مال أو بيت. كم من النساء تعايشن مع أوضاع لا تليق بهم وكم من زوجات تحملن إهانات الرجال خوفا على أبنائهم أو خوفا من لقب مطلقة.

كم من البشاعة أن يرفع قدرنا الله ونذل أنفسنا لأجل لقمة خبز أو من أجل السكن أو من أجل ألسنة الناس التي هي سياط على روح كل أنثى قررت أن تنجو بحياتها أو أن تكون ضحية رجل شرقي متعصب...

وكم قامت حروب بسبب النساء اللاتي لم يتعلمن من الحياة سوى أن تصطاد رجلا أو تسرق رجلا. هؤلاء لا يرين أنفسهن سوى أجساد تمشي على الأرض ليلتهمها كل رجل يمتلئ جيبه بالمال. لا يأبهون لشيء سوى أنفسهم.

استرجع طليقها ماله وكتب شقة لزوجته وأقر بالإنفاق عليها وعلى ابنته بما يليق بها.. فلم يعد هناك الحنان ولا الأمان بل رأت زوجته زوجها بنكا تأخذ منه ما تشاء وتعيش حياتها دون وجوده.

ذهب زوجها إلى العاشقة زوجة أخيه ليطيب خاطرها ويسترضي ودادها فهي المحبوبة التي تحوز عقله وكيانه. قابلته بدموع التماسيح تشتكي ظلم زوجته لها وفضيحتها التي ملأت كل ركن من البلدة

ونفور أهلها منها وهي التي ضحت وتزوجته سرا وعرفا خوفا عليه. فرق قلبه لها وقال لها:

– ماذا يرضيك يا منية القلب

العاشقة: أن تكتب لي أرضا وتعطيني مالا

زوجها: لكِ مني كل ما تتمنيه

العاشقة: أريد أرض زوجتك الأولى

زوجها: هي لكِ

العاشقة: وأريد رصيدا بالبنك

زوجها: كل ما تطلبينه أوامر

العاشقة: دائما ما ترضيني فأنت حبي وكياني

زوجها: ولكِ الدنيا كلها

لقد باعوا واشتروا فيها والكل تملكه الغيرة منها يحفرون لها حتى وهي بعيدة عنهم. لقد مزقوا جسدها وروحها والكل يطمع فيها وكأنها

الفريسة التي يجب أن تدفع ثمن أخطاء الآخرين. لم يتعظوا بل زادتهم الدنيا طمعا ولم يتعلموا درس الحياة. فمالها سوف يدور عليهم ليقطع شرايين الحب وتمتلئ حياتهم بحور دماء لا تنتهي أبدا. بل ستكون سلسال دم يغرقون فيه حتى يلتقوا جميعا عند قاضي السماء ويقتص الله منهم.

وعلى بعضهم انقلب الأهل وفتكوا ببعضهم فتلك الحقيبة الصغيرة التي بها مستندات ملكيته قد وقعت بيد أخته الكبرى والتي لم ترضَ بزواجه من زوجة أخيه بل وتجاوز الأمر إلى أن اتهم ابنها وهو بالخارج معه بالسرقة... فاستشاطت غضبا ولاعبته بأوراقه وممتلكاته. وهاجمه زوج أخته ببيته وتعدوا عليه بالضرب ولم يكتفِ طليقها بما فعله ولكنه قرر تلفيق قضية لابن أخته الثاني واتفق هو والمحامي بأن يجعلوا الخادمة بالبيت تدعي بأنه ضربها مقابل أموال.

وصارت حروبا سجالا بين الأهل كل يدفع ثمن خيانة العهد. وتقطعت أواصر المحبة وأصبحوا كبيت العنكبوت كل يهلك أخاه لقد كانت العاشقة تزيد النار وقودا وتبخ سمومها بأذنيه. لقد كان زوجها يحبها ولكنه أيضا لديه عقل ماكر لا يستطيع أحد أن يعرف أغواره. بعد أن

وعدها بأنه سوف يعطيها أرض زوجته الأولى رجع بقراره وسافر إلى عمله بالخارج دون أن يلبي لها ما طلبت.

لقد اهتزت ثقته بها فلم تصبح تلك العاشقة كما كان يراها بالأمس بل تبدل الحال وأصبح يراها كابوسا قد هدم حياته ولكنه لا يستطيع الفرار الآن. فقد تمكنت منه الحيات وأصبحوا يطوقون رقبته بإحكام. لقد فقد أهله والكل طامع فيه. شعر أن الدنيا تدور وأنه فقد صحته وسعادته وأن السعادة التي كانت تغزو قلبه ما كانت سوى

سعادة زائفة يعقبها الندم بوقت لا ينفع فيه الندم.

حاول مرارا وتكرارا أن يتواصل مع زوجته الأولى لإعادة الود ولكن أصبح طريق العودة شائك فلم يترك بابا مفتوح بينها وبينه بل أغلق كل أبواب المعروف.

وهي أصبحت بملكوت آخر تسعى للعلم وتبني نفسها وتتحدى روحها وتغوص بأعماق العالم الجديد الذي أينعت فيه براعم الحب والتسامح والرفق واللين. كانت تستمتع بعالم من الدراما القديمة وكأنها تحاكي

واقعها وتعطيها عبرا لتنير لها عن مكنون النفس وكيف تتعامل مع كل موقف بحياتها.

حاولت أن تنمي قدراتها وتتجاوز الأربع سنوات بجد وتعلمت ووثقت صداقات كثيرة وكان أفضلها ذلك الدكتور الشاعر إسلام الذي كانت دائما تنصت إليه باهتمام. فقد كانت طريقة إلقائه المحاضرة كمزيج من النصائح والفكاهة والشعر الذي يلمس واقعها وإحساسها.

فقد توقف بها قطار الذكريات إلى تلك السنوات قبل زواجها عندما كانت تقرأ لأعظم الشعراء كأحمد شوقي وآخرين. عندما كانت تمسك القلم وتسترسل بخيالها وتخط أشعارا وقصصا. لقد أحيا بها أشياء قد دفنت بمقبرة الحياة منذ سنين. كانت كل محاضرة وكأنها تنسج خيوطا تخيط فراغات الروح المهلهلة لتتعافى شيئا فشيئا وتنقذ ما تبقى من الروح المتهالكة. فعود الياسمين وإن جفت مياهه فإنه عند أول قطرة من ماء الحياة ينمو وينشر روائحه العطرة لتنعش قلوبا وأرواحا.

تعمقت بعالمها الجديد وتعافت من ظلال الماضي وأشباحه التي أحاطتها عمرا بأكمله لتنسج عالمها الخاص الخالي من كل أنواع الخيانة. روضت نفسها وعقلها ولم يعد هناك مكان بقلبها لأشخاص من زمن مضى بل تختبر كل من حولها حتى لو أوصلتهم إلى حافة الغضب لترى أي الانفعالات يسلكون وعندها تقرر من سيبقى ومن يجب أن يبقى تحت عجلات قطار الذكريات.

وتفوقت بدراستها وأنهتها بكل الحب والاحترام لعلماء أحيوا شيئا جميلا بنفسها. وبقيت تلك الفتاة الجميلة مريم وغادة وعبير وريهام أصدقاء إلى الأبد وكأن براعم الحياة ستلازمها لتبعث نبضا جديدا من قلب الذكريات.

ولكنها لم تكتفِ بذلك فقد قررت استمرار خوض تجربة العلم واستكمال الدراسات العليا. فالتحقت بالسنة التمهيدية وبتلك السنة تعرفت إلى أشخاص ذوي همة ونشاط.

لقد قابلت فاطمة تلك التي تتحدى الزمن بالعلم بصبر واجتهاد. لقد جذبتها ابتسامتها وإصرارها أن تنال حلم حياتها. فلم يمنعها تقدم

السن بل زادها إصرارا وتفانيا للتعلم وأن النساء ليس لهن أوقات ليتوقف بهن العمر وليس هناك محطة لتتوقف أحلام الذكريات لتحقيقها. بل إن تقدم السن يزيدهن رونقا وجمالا خاصا. وتلك الرائعة وداد ذات الجمال الأخاذ والقلب الطيب. كانت شخصية مختلفة متميزة تجذب كل من رآها إلى عالم من الخيال. وأمل تلك التي تبعث الأمل بنفوس من حولها...

كل هؤلاء أمدوها بنور من نور الحياة لينشق صدرها عن حب مدفون وأصيل وهو الصداقة التي لا تشوبها شائبة. فلم يعد بوسعها أن تهدهد الآمال الكاذبة بحياتها... ولكنها تنتظر الآمال الحقيقية المثمرة التي تؤتي ثمارها الطيبة بأوقات اليسر والعسر معا.

كل منهم يعاون الآخر بحب... كل منهم لا يعرف الآخر... ولكن القلوب النقية عندما تجتمع بقدر الله تصبح كنجوم السماء التي تهدي الضال بوسط الصحراء. وكان من روائع الزمن الجميل ذلك الدكتور عندما ينشد شعره بتلقائية ممزوجة بإتقان الشعراء.

كانت دائما تتمنى أن تكون مثله حاولت أن تنظم شعرا. تعثرت مرات وأصابت مرات عدة. وكانت نشوى تنظم الشعر المقفى ببراعة ودائما تتنافس معها بتنظيم الشعر بمسابقات شعرية.

نشوى: مساء الخيرات صديقتي

علياء: مساء الأنوار يا برنسيسة

نشوى: لقد نظمت قصيدة جديدة

علياء: حقا

نشوى: نعم

علياء: أتحفيني صديقتي

نشوى: سأنتظر ردك بقصيدة وسوف نحكم دكتور إسلام بيننا

علياء: هيا بنا

نشوى: لا لابد أن تبدئي أنتِ أولا

علياء: سوف أفعل ونجعلها مبارة شعرية بيننا

فتحت كتابي وقرأته بحرية

ووسط السطر وحروفه

لقيت المعنى والفكرة

وصدى روحي وعنوانها

وحكايتها وأحوالها لقتها

وسط السطر والمعنى

لذات الهمسة بلذتها

وبسكونها وبلهفة شوق

بعيونها وبقيودها لقتها

وسط الحرف والمعنى

نشوى:

الكون إيه

والحياة حكاية

عارفها المولى من قبل البداية

ووحده عارف امتى النهاية

فانظر لنفسك بالمراية

واسألها هي إيه الغاية

هتلاقيها الهداية اللي كلها

مزايا والمولى بيقولك

خليك معايا وشيطانك

بيناديك للغواية ويقولك

عصيانك منايا لكن ربنا

مخبيلك هدايا لو عملت

في شيطانك نكاية وقلت

يا ربي رضاك منايا وهنايا

علياء:

وفي بحورها لقيت الدمعة سابقاني

ويتنافس رموش العين وأجفاني

في ذل العشق وحب النفس والمعنى

على أغصان القلب وجروحه تغني

بلا رحمة وسيف القهر وسطوره

يطعن صميم الروح وأوجاعها

في صمت الخاشع صلاتي تنادي

فارسها وخيالها... لقيته اليوم

وسط السطر والمعنى بكتاب

نشوى: الله الله يا صديقتى ولابد من حكم الشاعر الكبير بيننا

دكتور إسلام: أحسنتم التنظيم والشعر والتعليم

كان غذاء روحها تلك اللحظات التي تنظم الشعر وكأن الزمن رجع بها إلى طفولتها البريئة بعفويتها وبساطتها. وكأن كل ما مرت به علياء منذ زواجها جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب. بل هي جملة اعتراضية لتعترض مسار النهر الجاري لتعكر صفو حياتها وتضيف مزيدا من الآلام والأحزان التي خيمت على حياتها عمرا بأكمله. ولكن عندما تسمع همس الملائكة وهي تكتب بريشة من نور بالكتاب المسطور أن الله استجاب لنداء روحها بعد صبر كصبر أيوب أو كصبر يعقوب بأن يجعل قلبها لا يفقد الأمل بوجود هؤلاء الذين يحيون الروح بإكسير الحياة.

وتوالت الأيام بين التعليم وبناء الروح وبين القضايا التي تحوطها من كل جانب. بالرغم أن الله شفى صدرها ولم يعد يعنيها أمر طليقها بشيء إلا أن الناس دائما تريد أن تصطادها بشباك الكراهية والغل. كم تمنت عفاف أن تراها مثلها!

وكم تمنت أن تراها مكسورة حزينة لا يفارق الحزن عينيها!

فالسيئ يتمنى أن يرى كل الناس مثله.. ودت العاهرات لو أن كل النساء مثلهن. فالعين لا تحب من أعلى منها. فقد كانت علياء تملك شيئا لا يمتلكه الكثير قلبها الذي يخشع لربه سرا وعلانية. فالقلب الخاشع الخائف من الله بالكبيرة والصغيرة ودرجة نقائه هي الوصلة الصغيرة التي تربط بين نور القلب ونور السماء. فالغشاوة التي تعلو العينين لابد لها أن تنقشع لتتضح الرؤيا ويزول ضباب الماضي الذي انتشر بكل مكان. الكل يركض ركض الوحوش بالبرية ولكن لا ينالوا إلا ما كتب الله لهم، فلم العجلة باستعجال الرزق ولم العجلة باستعمال أدوات الشيطان ظنا منا أننا أذكياء. بلى والله لقد أقسم منذ أن دبت به الغيرة والكبرياء أن يغوي بني البشر إلا المخلصين منهم. لقد وقف إبليس وكان الملاك المقرب لله سبحانه ولكن عندما خلق الله آدم من طين تأفف ذلك الملاك ولم يطع أمر ربه بالسجود لبني البشر فقد أخذه الغرور فأصبح منبوذا من الخالق وقال له اخرج منها مذموما مدحورا.

ونرى بعض البشر يأخذ منهم الغرور والكبر مبلغا. نرى هذا يقول أنا خير من هذا وأنا ابن فلان وهذه بنت فلان وأنا خير من هذه وهذا

خير من هذا. لقد وقعوا بنفس الفخ الذي وقع به إبليس عندما تملكه الغرور فأصبح لعينا إلى يوم الدين...

هكذا كانت عفاف والعاشقة وطليقها... هؤلاء هم أبناء إبليس الذين تبناهم من بني البشر. سرقوا وأكلوا أموال الناس بالباطل وتملكتهم أنفسهم فأهلكتهم... فأصبحوا معلقين بين جبلين بالهواء بجسر متهالك وأوشكوا على السقوط بقوة. وذلك عندما نصدق ما نريد أن نصدقه.

فقد سلكت عفاف طريق الشر لنهايته وعاشت مع المالك الثري يتلاعبون بمقدرات علي بحنكة. فقد استولى ذلك الثري على مستندات ملكية أملاك علي من عفاف بل ونقل ملكية بيته إلى نفسه وبدأ يتلاعب بعلي ليستولي على أملاكه. وبدأ علي يفتش بذاكرته عن أي شيء مسجل من قبل ذلك الثري عندما اشترى منه تلك الشقة الملعونة فوجد أن ذلك الثرى قد وقع على البيع بدفاتر الشهر العقاري بخط يده.. فانطلق مسرعا ليستخرج تلك الورقة ليثبت بها حقه. وقد كان هذا الثري صيادا ماكرا عندما نقل ملكية تلك الشقة إلى عفاف جعلها توقع بدلا منه لتقع تحت طائلة التزوير ولتصبح تحت رحمته مدى

الحياة... وبدأ القضاء يأخذ مجراه ليسترد علي حقه منهم بعد أن أكلته ذئاب الليل العاوية....

ولكن عفاف سبقته تقاضيه وتأخذ شقته باعتبارها حاضنة لأولاده وحصلت على قرار التمكين ذلك من النائب العام لكي يسهل عليها وعلى الثري أن يدخلا المنزل ويثبتا ملكيتهما له... ولكن وقع علي بالحيرة التي كادت أن تقتله وكأن شياطين الإنس قد أجمعت حوله لتفتك به.

وهاتف أخته وهو على وجل ولسان حاله عاجز عن وصف ما به من مرارة وغدر.

علي: كيف حالك أختي الغالية.

علياء: بخير حبيبي، كيف حالك أنت؟ وما هي أخبارك؟

علي: لست بخير فالحرب قد بدأت ولا أدري ماذا أفعل؟

علياء: ماذا حدث؟ لقد انقبض قلبي!!

علي: عفاف أخذت حكمل بالتمكين من الشقة بالدور الثاني وسوف تأتي بقوة عسكرية لتستولي هي وعشيقها الثري على بيتي

علياء: لا حول ولا قوة إلا بالله

علي: ماذا أفعل أختاه وقد جف النهر وأصبحت مرارة الصبار بحلقي أتجرعها من تلك الخائنة الشرسة.

علياء: لله الأمر أخي لا تجزع فالله عنده الحل اليقين.

علي: لقد اهتز الجبل من فرط الأحمال التي يحملها وغرقت بليل طويل مظلم وعقلي كاد أن يذهب ونفسي باتت زاهدة وعمري ضاع سدى، ماذا أفعل أختي وسيف الغدر يسبقني.

علياء: لا تجزع وتحلى بالصبر ولا تفزع. فإن الدنيا فانية وسيف الحق لا يفزع فلا يجزع...

علي: قد ضاق صدري من أذى البشر، وقد ذقت مرارة الصبر

علياء: دعني اليوم أفكر بالحل الأمثل ولله الأمر من قبل ومن بعد.

علي: أختي التي إن ضنت الدنيا عليّ عزيزة.. تسمعني من غير الكلام المرتل...

علياء: اصبر وتحلى بسيف الله لا تجزع واعلم أخي أن الله اسمه العدل.

لقد جفا النوم عيني علياء ولم ترجف أهداب عينيها بل ظلت مستلقية على الأريكة تتعمق بأفكارها وتسبح بذهنها وتناشد ربها سرا... وبينما هي سابحة بأفكارها تذكرت ذلك الصديق الوفي البحر الذي كان يداعبها بنسماته الباردة لقد كان جندا من جنود

الله التي ظلت بجوارها محبة من ربها، بل منحة ربانية لقلبها العليل. تمنت لو كان يسمعها ويضمها بين أمواجه الهادئة ليسكن ضجيج روحها ويلملم شتات أفكارها المتبعثرة على شاطئ الدنيا الغادرة. كانت كمن انزلقت قدماه من على سفح جبل عال ليجد نفسه بباطن الجبل تبتلعه كتل الظلام بكل مكان ولا يوجد سبيل للخروج.

ابتلعها النوم عنوة وإذا بها ترى صديقها الحميم... كانت واقفة على شاطئه تراسله بنظرة اشتياق وتناديه بكلمات يشوبها شجن الذكريات

علياء: صديقي أين أنت

البحر: كنت بسبات عميق أنتظر قدومك من بعيد... قد اشتاقت أمواجي لأحضان المحبين وضحكاتك التي كانت تجعل أمواجي كالنسيم...

علياء: كم اشتقت لرقصاتي على أنغام أمواجك العالية.

البحر: هلمي وانزلي بين أمواجي لتنالي قبلة العاشقين وتنالي من جوفي كنزي الثمين.

علياء: كم كنت لي عونا صديقي ونورا بظلام الغادرين.

البحر: ألقي بأثقالك وهمومك بين ذراعي واعلمي أني بئر أسرارك مهما طالت السنين..

علياء: أتذكر كيف غاصت بقلبك شمس الأصيل وكم كانت شمس الشروق تداعب صفحتك بلونها الأزرق الجميل...

البحر: نعم أنتِ تلك الشمس وقت الأصيل وتلك الشمس وقت الشروق فلا شيء يدوم... فلا الحزن دائم ولا السرور.

علياء: صدقت صديقي الغالي.

البحر: وما هي شكواكِ تلك المرة؟

علياء: أخي قد غدرت به الدنيا.

البحر: ألم يقفل بابه بوجهك يوما!!

علياء: صديقى هذا أخي دمي منه ومنه دمي.

البحر: ألم يقسُ عليكِ يوما!

علياء: صديقي هذا أخي وأبي.

البحر: ألم تتذوقي الوحدة بسببه!

علياء: صديقي هذا أخي عمري وسندي

البحر: أحب فيكِ نقاء القلب والروح

علياء: صديق عمري ودربي كل منا يحمل نفس الكنز.

البحر: هلمي بين ذراعيّ واحكي لي عما يحزن مقلتيك فلم أعد أرى بريقهما ولكني أرى دموعا حبيسة جدران سجن. احكي مكنون القلب واعلمي أني لك نعم العون والسند.

علياء: أعلم صديقي فالصداقة كنز لا يعلمها ولا ينهل منها سوى من كانت قلوبهم كبياض الثلج.

البحر: رأيت دموعك وهي تحاول الهرب من بين جفونك عندما كنت أنت وزوجك تتحدثان على الشاطئ.. لقد كنتما تجلسان على حافة لساني وتطايرت كلماتكم ورأيت خبث المغرورين بزوجك وكم كانت كلماته تطعن روحك ودموع عينيك تهرب لتلقي السهم بقلبي عندما تشيحين وجهك وعينيك بعيدا تحاولين أن تصرخي من داخلك دون جدوى. سمعتك فأرسلت عبير النسمات إليك لتداعب قلبك وترسم شمس الشروق بثغرك البسام عن قرب.

علياء: كم كنت أشتاق لدبيب الروح عن قرب. وكنت أنت أنت الساحر فقد كانت أذرع الأمواج تغمرني بحنان لم يزل يسري بنبض القلب والروح.

البحر: إليك النبض والدفء، وخذي منى اللؤلؤ والمرجان والنعم واجعلي حلي الحب تاجا يعلو جبينك، وارفعي شيم الكرام تأسرين قلوبا، وارسمي لوحة الأخلاق بالأفعال واجعلي ريشة الفنان عنوانا، وألقي الهموم كلهم بساحة الدنيا واهرعي لله ساجدة تنالي العزة والعون. فلا أمواج الدنيا تدفعك نحو الشر مهما حاول الأعداء ولكن كوني كعود من العنبر الجذاب يستميل النفس والعين.

استيقظت علياء ونور الفجر ينادي عليها ويهمس بأذنيها أن شمس الشروق ستعلو وتعلو لتنير ظلام دنياكِ. هبت من فراشها تفتح نافذة الغرفة تنادي الفراشات الجميلة وترى قوس قزح كأنه خط فاصل بين شمس الشروق وظلام الليل إيذانا بحياة جديدة. كانت أسراب الطيور تسبح بالسماء تبحث عن رزقها مرحة تغني بأغاني الحياة. فكيف لتلك الطيور تغدو صباحا متوكلة على ربها لا تحمل هم رزقها وحياتها، أن تشعر بالحرية والسعادة كذلك.. أليست خائفة من صياد جائر!! لكنها رحلة والحافظ هو الله.

كانت رسائل صديقها دائما عونا لها. واستجمعت شتات تفكيرها وواتتها الفكرة لإنقاذ أخيها. وذهبت إلى زوجة أخيها الثانية وأخذتها

من يدها مسرعة نحو دار القضاء لتكتب شكوى بأن زوجها علي قد طردها وهي تريد التمكين من نفس الشقة بالدور العلوي. وبالفعل تم الأمر بأسرع وقت. وقد دفعت علياء مبلغا من المال حتى تأتي تحريات الشرطة مطابقة لكلام زوجة أخيها الثانية.

وصدر القرار بتمكين زوجته الثانية بالمناصفة بينها وبين زوجها بأمر من النائب العام. وهنا استعملت علياء نفس سلاح عفاف لمحاربتها.. فلا يفل الحديد إلا الحديد...

جاءت عفاف والثري بقوة من الشرطة لتمكينها من الشقة عنوة وبالقوة. وكانت هناك زوجة أخيها الثانيه وعلياء وحدهما بذلك البيت. ووقفت علياء بجوار الضابط تحدثه بثبات. فواجهت عفاف علياء بالسباب والقذف بالكلمات ولكن استقبلتها علياء بالصمت فأثارت غضب الضابط الذي نهرها وأبعدها بالقوة بل وصعق الثري بعصا كهربية..

وعندها قدمت علياء المستندات الضابط بأن زوجة أخيها على قد حصلت على تمكين بذات الشقة ولا يجوز لعفاف التمكين لأنه سبق لزوجة أخيها التمكين..

فكتب الضابط محضر بذلك وانسحبت القوة تجر أذيال العار وراءها. كانت عفاف ترمق علياء بنظرات الحقد والغل. وعلياء تقف بالشرفة تنظر لعفاف بالشارع وهي تتوعد لعلياء بالانتقام.

كانت علياء تنظر إليها بعين الشفقة وهي ترى أن الشيطان تملك منها وأصبحت تجسده بأفعالها.

كم كان حجاب الدين الذي تسلحت به علياء يمنعها من الشماتة أو الرد أو الانزلاق لتلك المستنقع والدخول إلى ذلك الدغل الشائك.

وكل ما فعلته هو ضرب الظالمين بسيف الحق. فوجوه الغدر وأقنعة الباطل كثيرة. وكم طاب قلب علياء عندما اجتمع شملها هي وأخيها! بعد أن سرى السم الزعاف بأوصال تلك العائلة الهادئة.

صدقت يا رسول الله عندما قلت تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. كم كان رسول الله ناصحا محبا وقال اظفر بذات الدين تربت يداك.

الدين الذي يمنع صاحبه من السرقة وقول الزور ولا يعطي لنفسه المبررات لفعل المنكرات مهما كانت الأسباب.

كم من رجل أعطى لنفسه مبررا بالجور والظلم والكذب. وكم من امرأة أعطت لنفسها مبررا بالسرقة والخيانة... وتقول كما يفعل زوجي سوف أفعل مثله... نسوا أن الإنسان سيحاسب وحده.. بكتابه هو الذي سطره بيده... ولن يدفع الثمن غيره... ولن ينفعه لا صاحبة ولا ولد... فأين العقل الذي تزينا به ولأجله عصى إبليس ربه لأجل الأمانة التي حملناها على عاتقنا... فأصبحت الأرض والسموات تشفق على الإنسان منها... ولكنه كان جهولا...

عندما واتت سيدنا يوسف الفرصة للخيانة اعتصم بحبل ربه ولم يعط مبررات بل كان حجاب الدين رادعا له عن كل معصية فنجاه الله من كل بلية... وعندما واتت الفرصة لإخوة يوسف رموه بالبئر وحيدا شريدا.. وجاؤوا بدم كذب... وشهدوا بالزور من القول، فلم يردعهم حجاب الدين بالرغم أنهم كلهم إخوة من صلب نبي واحد. هنا الدين يحكم العقل ويحجبه عن المعاصي عندما تواتيه الفرصة لذلك.

ولكن عفاف تنازلت عن حجاب الدين والعقل واتبعت الأهواء ظنا منها أنها ذكية أو ستفوز بالمال والشهرة والثراء. ولا تعلم أنها تحفر لنفسها قبرا مظلم بتلك الدنيا. فإخوة يوسف لم يغتنوا ولم يصبهم الثراء ولم تهنأ قلوبهم وساد القحط وخيم الحزن على وجوههم. بل لأجل حب أبيهم تخلصوا من أخيهم ولكن ذلك المبرر لم ينفعهم فازدادت المسافة بينهم وبين أبيهم وأصبح فؤاده فارغا لا يرى سوى قلوب أبنائه القاسية...

فكم من المبررات اتخذها الإنسان لفعل ما تشتهيه النفس من منكرات ومعاصي.. وتركع ساجدة خاضعة ودموع الشوق تحتضنها أنها بين يدي ربها.

تلمس جبهتها الأرض راضية مستسلمة لنداء قلبها. تخيلت أنها أمام العرش في حضرة الذات العليا وكيف لا وروحها جزء من روحه. تتوسل إليه بأكف التضرع بأن يضع الطمأنينة والسكينة بقلبها. ولا تركع لعدوها أبدا.

واصلت تعليمها بخطى واثقة وكأنها بعالم منفصل عن واقعها الذي تعيشه بين حيات البراري. وتوالت الصدمات لطليقها وعرف الحقيقة المرة أن الناس تخلوا عنه بأول محطة للشدائد.. وجد أن ماله هو الهدف ولا أحد يهتم به ولا يحبه إلا لسوى المال.

لا حب حقيقي بحياته ولا علم حقيقي ولا تدين حقيقي. كل شيء حوله مزيف حتى الكلمات مزيفة. استشعر البؤس بقلبه وأحاطته أشواك الصبار من كل جانب. فقد الأهل وسكينة الزواج بل تحول الزواج إلى سكين على رقبته لا يستطيع الإفلات منها. وتحول إلى وحش جارح بأنياب حادة لكل المقربين لديه إلا هي..

إن الله يعاقب كل نفس بما تتصف وعلى قدر نفسها وليس بقدر ما تمتلكه من أموال وأطيان... فالله عندما عاقب النمرود عاقبه على قدر وضاعته وعاقبه ببعوضة لا أكثر ولا أقل من بعوضة. فلم تنفعه أمواله ولا أطيانه ولا أهله... كم من جنود الله الخفية التي لا يعلمها إلا الله تنتقم من الظالم بأفتك الأسلحة وهي لا تزن مثقال ذرة... سبحانك ربى وما أعظمك. فلم يعد يتسع قلب طليقها للدنيا التي فتحت ذراعيها تستقبله بالأماني والأمنيات الزائفة، بل لفظته بعدما فتنته...

أصبح يبحث عن الأمان وكأن أمواله لا تغنيه ولا تجلب له السعادة وراحة البال. كان يبحث عن علياء ويتحسس أخبارها بين الحين والآخر. كان يرجو ولو رجع به شريط الذكريات لتلك اللحظات بينهما ويصحح ما قد فات... ولكنه اختار طريقه منذ البداية.

وسطر أحرف الفراق بل وأحرف الغدر بكتابها وكتابه فلا يوجد غير كلمات الأنين تشكو ألم الذكريات. فقد أهلكته الأنا التي أخرجت إبليس من رحمة الله عندما قال أنا خير منه... فالأنا هي منبع كل الشرور التي توجد على وجه الأرض. عندما نظر طليقها إلى نفسه فقط ولم يدرك أنه يسكب بذور الحقد بأرض جوفاء قاحلة لا يروي ظمأها إلا بئر مالح... فكانت الثمار هي تلك التي جناها من أهله وزوجاته.

تودد إلى ابنه كثيرا وحاول بكل الجهد أن يهاتف علياء وبإحدى المرات وبعد إلحاح من ابنها أن تعرف ماذا يريد أجابت وقالت:

علياء: سلام الله عليكم

طليقها: كم اشتقت إليك

علياء: ماذا تريد؟

صمت طليقها برهة من الزمن وكأن الكلمات تأبى أن تخرج من بين شفتيه... وتأتأ بالحديث فكرامة الرجل الشرقي تأبى الاعتذار.

علياء: ماذا تريد؟

طليقها: أنت تعلمين

علياء: أعلم ماذا

طليقها: حبي لكِ

علياء: كم أحمق كلامك!

طليقها: لماذا؟

علياء: الحب اندثر منذ زمن وتشتت دمه بين القبائل والمدن

طليقها: أنا تغيرت وتعلمت أنك جوهرتي الثمينة

علياء: لوثتها بين يدي البشر عندما احتجت للأمان والسكن. ومددت عينيك إلى حالي وأخذت أموالي ووضعتني بقفص الاتهام ورأيت

نظرات الشماتة بين الأعداء ونفر مني القريب وانفرط عقد العائلة وساد الفراق وبللت دموعي وسادتي وتحدث الناس عن

يأسي. فأي حب تنشد وأي تعليم تقصد!!

طليقها: كنت أعمى لا أرى ضوء النهار

علياء: وما ذنبي أن الله أظلم روحك وطغى الظلام على عينك.

طليقها: قد مللت الدنيا من غيرك

علياء: وأنا تعلمت الدرس ووجدت العون من غيرك.

طليقها: غيري!!

علياء: نعم غيرك.. ولا تحسب أني اعتمدت على الرجال بل اعتمدت على ربي... وخضت مضمار الحياة وواجهت يأسي.. فأين كنت أنت؟؟ بين أحضان المحبين ترشف الحب المزيف... والآن تطلب الصفح الجميل.

ساد الصمت وتحدث السكون وتعالت الأنفاس بين قهر وندم.

وتنهدت علياء وتنفست الصعداء من فرط الخجل... وطأطأ طليقها رأسه من الندم على ضياع علياء من يده..

عندها أنشدت علياء قصيدتها:

أتسخر أني فعلت الصواب؟

ومرا تجرعت وخضت الصعاب

وترمي بريئا بسهم العتاب

وذل العذاب وعفوا تطلب

زهرا سقته يوما غباء فيارب

ومني تسخر أني فعلت الصواب

وكنت جناح الظل يوم العذاب

إليك مددت الروح نهرا لتحيي خراب

وتسخر مني أني فعلت الصواب

وألقيت ظلي على من عاب

وأطلق رمحه نحوي يريد عقاب

ولم يعلم أني بحصن رب حبيب

وتسخر مني أني فعلت الصواب!!!

حصلت علياء على وظيفة كمدرسة بمدرسة مجاورة للبيت بعد تخرجها وانخرطت بالحياة وانهال عليها الرزق الوفير وأصبحت محبوبة من الناس. استقلت بحياتها وبنت بيتها ورممت جدران الثقة بقلبها... وانقلب الحال بالرضا والسرور والأصدقاء الذين انتشلوا قلبها بعد أن غرق بمحيط الدنيا الغادرة... فأصبحت شخصية جديده تجيد الشعر والكتابة... وامتلأ قلبها أملا بأن الغد أفضل مادام الله معها... ولا ترتكب ما يغضب ربها.

نالت السكينة التي كانت تبحث عنها بقلوب أحبتها لوجه الله وأمدتها بنور الله... وبقي قلب طليقها ما بين الحسرة والندم يتجرع كأس الهم... وأصبحت حياته ممزقة بين زوجاته... ولكن تبقى علياء بالنسبة له حلما بعيد المنال ونجمة تسطع في سماء دنياه ولا يستطيع

الاقتراب منها.. أمد ابنه بالمال فاجتذبه إليه ولم تمنع علياء ابنها من أبيه مثل باقي النساء. ولكن كانت تردد دائما قول الله.. ادعوهم لآبائهم ذلك أقسط عند الله.. تمثلت لأمر ربها فأنقذها ومد يد العون لها...

وبقيت عفاف على ضلالها تنشد المال بالسرقة وتنشد الحب الحرام فغاصت ببحر من الوحل وابتلعتها كتل الظلام واستولى عليها الشيطان. والحرب مازالت مستمرة بين الحق والباطل...

ففي أحضان الحرام يولد الظلام الذي يغطي قلوب البشر الذين يتكبرون عن التوبة وتأخذهم العزة بالإثم ويصبحون مثل أولاد الليل لا يحبون إلا بالليل المظلم... لقد منعت عفاف أولادها من رؤية أبيهم. بل ملأت قلوبهم بأحقاد وصفدت قلوبهم بأصفاد كأنها سلاسل من نار.

وعندما علم ابنها الأكبر بالحقيقه واجه أمه بحقيقتها ووجهها الكريه.. فما لبثت الأم إلا أنها انهالت بالضرب على إبنها ولم تكتف بذلك بل دفعت ابن أخيها إلى الاعتداء على ابنها... فهرب الابن من

براثن الغدر وأنياب الذئاب العاوية وخفافيش الظلام التي تتغذى على دماء الأبرياء.

واستغاث بأبيه وهو بجنح الليل المظلم من فتك ابن خاله البلطجي وأمه التي استولى عليها الشيطان وهاتف أبيه على من تليفون بمحل بالشارع.

- أبي أنجدني من غدر أمي.

علي: ماذا فعلت بك؟

- لقد جنت أبي وفتك الشيطان بعقلها

علي: ماذا فعلت بني؟ وأين أنت؟

- أمي جلدتني بسوط القسوة والغدر

علي: ماذا فعلت بني؟

- إني بالشارع بجنح الليل بجوار محل بشارع جانبي

علي: ابقَ كما أنت بني لا تتحرك

– أنا خائف.. وأرتجف فقد رمتني أمي بالشارع بجنح الليل.

علي: سآتى على جناح السرعة بني ولا تخف.

هب الأب لنجدة ابنه من ظلمة الليل وهاتف أخته علياء واستقلوا العربة والحيرة تقتلهم والتفكير يسلبهم عقولهم... بأي صنف هذه المرأة وأي قلب تحمل بين ضلوعها. كان ابنه وعلي وعلياء كل منهم يحمل قلبا جريحا وقد أتعبه الأنين. فما السبيل يا ربي من تلك الغدرات والعثرات.

كان علي يطير بسيارته السوداء وكأنها شبح من أشباح الليل وكأن الليل أصبح عباءته التي تلازمه بحياته.. بل وتكسو حياته كلها.

وساد السكون وكانت علياء تنظر من خلف زجاج السيارة وإذا بقطرات المطر تنزلق من على الزجاج وكأنها تستنجد للدخول إلى العربة... تأملتها بصمت وقالت كم أنا مثلك فتلك القطرات مثل عبرات قلبي التي تنزف بصمت وتستنجد للدخول إلى عالم خالٍ من العواصف والرعد...

ولكن عندما تأملتها وتأملت صوت تصادم الركام تأملت حكمت ربها في دموع السحاب. لأجل تلك الفكرة توهجت الشمس الذهبية واعتصرت ماء البحر لعصر وتصعد بأصفى قطرات الحياة لتصعد بها إلى السماء وعندما تزايد الخير نشب الخلاف بين السحاب لتسقط دموع السحاب لتحيي الأرض الجدباء...

هكذا الدنيا والمحن تعتصر الإنسان لتصعد أجمل ما فيه ليحس نفوسا جدباء أيقنت أن كل ما يحدث خير ولعل الله أنقذ ابن أخيها من غدر أكبر أو موت محقق. عندما وصلوا إلى المكان وجد علي ابنه جالسا منحني الرأس وكأنه يحتمي من ذل الدنيا... ساندا ظهره على حائط قديم وكفيه تغطي وجهه...

جرى علي مقبلا على ابنه يحتضنه من غدر الدنيا وظلامها... وكانت عبرات ابنه تتحدث عن حاله بصمت...

خلع علي الجاكيت ودفأ ابنه وأخذه تحت جناحه يحتويه من أشباح الليل وقسوته.

وكف يمسح دموعها التي كانت تنزل على قلب أبيه مسكين يقطع روحه قطعا صغيرة.

واستقلوا السيارة وانطلقوا إلى البيت لتستقبله زوجة أبيه برفق وحنان لم يرهما بأمه.

فحنان القلوب كنز لا يعلمه إلا من رافقه اللين بالحياة. فالله توعد القاسية قلوبهم أنهم لن يروا الجنة أبدا.

وهبت زوجة أبيه لتحضير الطعام لابن زوجها. وحذرها زوجها أن تجرحه بكلمة. ووقف الكل بجواره إلى أن استعاد ثقته بنفسه. بل كان علي يحتضنه كلما رآه

ويقبله من بين عينه بشدة ويخرجان سويا يتحدثان ويضحكان ويلعبان الكرة سويا.

لقد احتوى ابنه بصبر وحب فأصبح سنده وصديقه وجزء من روحه التي استردها بفضل الله تعالى.. كم من قلوب قاسية لا تعرف الحب ولا اللين ولا الرفق.. فهؤلاء ليسوا سوى حجارة صماء.. لا تصل إليها الحياة مهما حاولوا الوصول إليها...

وتجمع بعض الشمل وارتسمت البسمة على وجه أخيها علي وكانت كسمفونية يعزفها رب العالمين عندما تلتقي قلوب المشتاقين المحبين بعدما ضنت السنون عليهم باللقاء. كم تاقت النفس شوقا لرؤية رسول الله فقد كان يتيم الأب والأم وكان قلب حليمة السعدية وحنانهاعليه كعصفور بين جناحي أمه وحنانها. لم تكن بأمه ولكن الله وضع الرحمة واللين... اللهم اجعلنا منهم يا الله...

وكلنا نعيش بتلك اللحظات التي تصبح سماؤنا كلون الرماد تحمل دموعل وآهات... بسماء ملبدة بالغيوم.. سمعت صوت تصادم الركام وانشقت السماء ببرق وبريق منها امتد وكاد يصدم زجاج النافذة بقوة..

وتدفقت حبات المطر خلف النافذة تستنجد للدخول... تأملتها بقوة وحدثتني نفسي..

ألأجل دموعك توهجت الشمس الذهبية لتعتصر قطرات البحر الصافية بقوة لتصعد بها إلى السماء... حتى ملأت السحب بأصفى قطرات الحياة... ولكن لكثرة الخير نشب الخلاف وصدمت الجبال وتدفقت

دموع السحاب وانزلقت بقوة لإحياء الأرض الجدباء... لتنمو بها الحياة...

لابد من يوم يأتي ترد المظالم لأهلها وتكون دموعهم كدموع السحاب التي تبعث الحياة بصحراء كانت بالأمس دوحة غناء بالأخلاق والقيم فتظهر طيور الجنة من جديد ونشرب من نهر الفرات ونستعيد نبض الحياة من نبض الذكريات.

تمت.

* * *